
الجنرال أوساريس
شهادتي حول التعذيب
مصالح خاصة:
الجزائر 1957-1959
ترجمة : مصطفى فرحات
"L'ordre de tuer BEN M'HIDI
a été donné par MITTERRAND"
دار المعرفة

الجنرال أوساريس

شهادتي

حول التعذيب

مصالح خاصة :

الجزائر 1957 - 1959



ترجمة مصطفى فرحات

العنوان : شهادتي حول التعذيب "مصالح خاصة : الجزائر 1957- 1959"
تأليف : الجنرال أوساريس
ترجمة : مصطفى فرحات
الإخراج : قسم التصفيف . دار المعرفة »
ر.د.م.ك : 978-9961-48-510-1
الإيداع القانوني : 2120/2008

دار المعرفة

10 نهج عبد الرحمان ميرة باب الوادي الجزائر

مصلحة النشر:

الهاتف: 00213. 021. 62. 00. 25

فاكس : 00213. 021. 96. 76. 65

Elmarifa_ed@yahoo.fr

المصلحة التجارية :

الهاتف: 00213. 021. 96. 82. 12

فاكس : 00213. 021. 96. 86. 97

elmaarifa.commercial@yahoo.fr

http//www.elmarifa.com

e mail : fhouma@elmarifa.com

في البدء.. كانت الحقيقة

عندما أدلى الجنرال المتقاعد (بول أوساريس) بحوار إلى صحيفة (لوموند) ـفرنسية في شهر نوفمبر 2000، وذكر فيه بعض الوسائل التي استعملها لجيش الفرنسي في الجزائر إبان فترة الاحتلال، ومن بينها التعذيب والقتل، تململت النخب المثقفة الفرنسية والجزائرية، واحتدم النقاش حول تاريخ حاول كثيرون تجاهله أو تجاوزه، وطفت على سطح الأحداث قضايا عفا عليها ـزمن ولم يُفصل فيها بسلب أو إيجاب، وإنما تُرك التاريخ الجزائري الفرنسي مشترك يواجه وحده -وبدون سند- أعاصير النسيان ورياح التنكُّر الهوجاء عاتية، لتفعل فعلتها فتمحو بجرة قلم حينا، وبرنّة درهم أحيانا أُخرى، حصيلة مآسي التي تجرّعها شعبٌ كُتب عليه تيهٌ لم يزل يأمل الخروج منه، منذ ما يزيد عن أربعين سنة من استقلاله.

غير أن (رجل معركة الجزائر) - مثلما يسمي (أوساريس) نفسه، ومثل ما سنراه جليا في فصول هذا الكتاب - رأى أنه يحمل على عاتقه أمانة تقديم لحقيقة - وفق تصوره - لأجيال عطشى كان سيفوتها خير كثير لو سكت كما سكت الكثيرون، ولهذا قرّر تدوين شهاداته المجتمعة في كتاب يحمل بين دفّتيه صورة حية عن ماض مشترك - وقَدَر مشترك - جمع الجزائريين والفرنسيين، ولا يزال يجمعهما.

ولكنّ الكتاب - دون قصد مؤلفه - أثار ردود فعل جانبت المقصد الأسنى من تدوينه، وتحوّل النقاش فجأة من دوائر الأوساط النخبوية إلى فئات شعبوية حاولت التشغيب على الكتاب وعلى المؤلف نفسه، وشرعت الجمعيات والأشخاص في رفع دعاوى قضائية ضد من أسموه (سفّاح الجزائر)، وطالبوه بتعويضات!! عمّا اقترفته يداه الملطّخة بالدماء - وهي فعلا قد اصطبغت

بحمرة الدم القاني الذي سفكته - ناسين - أو متناسين - أنه لم يكن سوى حلقة واحدة ضمن سلسلة طويلة كان العدل يقتضي إدانتها جميعا أو الصفح عنها جميعا إن كان ثمة من يملك فعلا حق الصفح.

إن هذا الرجل الذي قتل (العربي بن مهيدي) و(علي بومنجل) وغيرهما من أبطال الجزائر ما فتئ يردد أنه اقترف ما اقترفه تنفيذا لأوامر الجمهورية الفرنسية، وبتوصيات من سلطاتها العليا، فلماذا ثار الجميع ضدّه وغفلوا عن المشرف والمخطط والآمر والمبارك لهذا الإجرام؟

* * * *

يطرح المؤلف بين ثنايا كتابه قضية تُعدُّ مربط الفرس الذي احتدم حوله النقاش في الماضي كما الحاضر، وهو اللجوء إلى التعذيب لقهر العدو وهزيمته، وهو مع ذلك يُصرُّ على القول - كمْا في مقدمة كتابه أن "**العمل الذي قمتُ به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقدا في ذلك أنني أحسن صُنعا، وإن كنت لم أُرد أن أقوم به، وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن لنا أن نندم عليه**".

ويقودنا هذا إلى طرح التساؤل الآتي: هل كان يُمكن لفرنسا أن تفعل غير الذي فعلته لتحافظ على مركزها ورسوخها في الشمال الإفريقي عامة، وفي الجزائر خاصة؟ وبمعنى آخر، ما هي الوسائل التي كان في إمكان الجمهورية الفرنسية اللجوء إليها؟ وهل هناك أخلاق في مجال الحرب؟

إن هذه الفكرة المصاغة في قوالب استفهامية تقودنا - بلا أدنى شك - نحو قضايا فكرية وفلسفية أعمق وأبعد أثرا، ولا يحتل الجانب العملي إلا ذيل القطار عند أولئك الذين يُريدون البحث في (أصول) الأسباب، وهو ما كان ينبغي علينا فعله منذ زمن.

وحتى إن أجاب الجنرال (أوساريس) نفسه على هذه التساؤلات بقوله: "إذا وجدتُ نفسي في وضع يُشبه الوضع السابق (أي معركة الجزائر)، فإنني سألجأ إلى نفس الطرق التي استعملتُها من قبلُ - وإن كان ذلك يُزعجني - لأنني أعتقد أن ذلك هو السبيل الوحيد لحل المشكلة"، أو أجاب قائده في معركة الجزائر الجنرال (ماسو) بعكس ذلك تماما، حيث قال: "إن التعذيب ليس شيئا ضروريا في الحرب، وكان يمكن أن نفعل الأشياء بطريقة مغايرة"، فإن ذلك لن يُغيّر في واقع الأمر شيئا، وستبقى أسئلة كهذه تطرح نفسها على الصعيد الفلسفي المعرفي أولا وآخرا.

ولعلّ المسألة أضحت واضحة أكثر منذ الهجمات التي تعرّضت لها الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر 2001، وما أعقب ذلك من التحولات السريعة - والخطيرة - التي شهدها العالم، بدءا بهيمنة المحافظين الجدد على مقاليد إدارة البيت الأبيض الأمريكي، وهم خليطٌ متجانسٌ من تُجّار السلاح ومُسعري الحروب وأرباب الأموال، ومرورا بمُعتقل (غوانتنامو) الذي أضحى شاهدا على وحشية (دعاة الحرية)، تماما مثلما وقع من فضائح في سجن (أبو غريب) بالعراق المحتل، وانتهاء بتطويق الدول وتهديدها عسكريا عن طريق شن سلسلة من الحروب الوقائية، وذلك أن المسألة باتت تُطرح على الشكل التالي: هل يمكن أن نتعامل بقيمنا مع عدو لا يحترمها؟

والجواب - في نظر الغربيين - صاغه (روبرت كوبر) أحد مستشاري (توني بلير) السابقين، حيث قال: "سنحترم القانون في تعاملاتنا مع بعضنا بعض، ولكن عندما نكون وسط الغابة، فإننا سنتعامل وفق قوانين الغاب"[1]..

---

[1] - "أمريكا المحاربة وأوروبا الجبانة" ـــ روبرت كيغان ـــ "صحيفة الفيغارو" الفرنسية 2003/03/06

ولهذا يمكننا أن نقول – مطمئنّين – إنه في مجال تقييم الأشخاص والأعمال والمبادئ، لا توجد هناك وسائل شريفة وأخرى وضيعة، بل هناك – ببساطة – غايات شريفة أو وضيعة هي التي تُملي على صاحبها سلوكاته وتصرفاته، كما أننا نقول – مطمئنّين كذلك – إن الغايات الشريفة لا تُنالُ إلا بوسائل نبيلة ليس للنفاق والخبث إليها سبيل.

ونحن بعرضنا لكتاب كهذا يجب أن نحرص على قراءة بعيدة عن الانفعال والعواطف التي تحجب الواقع، ليس بدعوى الموضوعية أو احترام الرأي الآخر، بل بدعوى أن نقرأ التاريخ كتاريخ، نفهم مغزاه، ونُوضّح معناه، ونستفيد من تجارب السابقين كيلا نقع فيما وقعوا فيه.. على الرغم من أن التجارب تُظهر بأننا لا نزال نجترُّ أنفسنا، ونُمارس فنّا (مازوشيا) نقوم من خلاله بالاستمتاع ونحن نُعذّب أنفسنا بأيدينا.

وختاما، يجب أن نعي أنه في مسائل التاريخ، لا يُعتبر التزييف والخداع المثلب الوحيد الذي يُمكن توجيهه إلى من يحاول القفز على الحقائق، بل إن السكوت عن الإدلاء بالشهادات الصحيحة ومحاولات التكتُّم تحت أي مبرّر كان لهُو ذنبٌ أدهى وأمرُّ.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك عن مصير أجيال كثيرة تعيش على وقع تاريخ تجاذبه التزييف والتضخيم والكتمان، ونريد منها بعد ذلك أن تقف خاشعة أمام ذكرى ثورة لا تعرف عنها شيئا، سوى ما يُروى من الوقائع التي باتت تُشبه الأساطير.

مصطفى فرحات

مُقدِّمة

مثل كثير من رفقائي الذين حاربوا في الجزائر، لم أُقرّر النسيان وإنما قررتُ السكوت، فلقد كان ماضيّ في المصالح الخاصة التابعة للجمهورية الفرنسية يتطلب مني ذلك.

ثم إن العمل الذي قمت به في الجزائر كان يخضع لقانون السرية، وكان يمكنني أن أحتمي خلف ستار كهذا لألتزم الصمت. وأعلم أنه سيكون ثمة اندهاش كبير من أني قررت الإدلاء بشهادتي بعد أكثر من أربعين سنة حول أحداث خطيرة تتعلق بالوسائل المستعملة في مكافحة الإرهاب، وكذا استعمال التعذيب واللجوء إلى الاغتيالات العشوائية.

وإني وإن كنت على يقين من أن السرد الذي سأقوم به في صفحات هذا الكتاب سوف يصدم أولئك الذين كانوا يعلمون وفضّلوا أن أصمت مثلهم، أو أولئك الذين لم يكونوا يعلمون ويريدون أن لا يعلموا أبدا، غير أني أظن أنه آن الأوان لأن تقال أشياء ما، وبما أنني ــ مثل ما سنرى ــ مرتبط بوقائع هامة من تاريخ الجزائر، أُقدّر أنه من واجبي سردها. وقبل طيّ صفحة التاريخ يجب أن تكون قد قُرئت، وهذا يعني بالضرورة أنها كُتبت.

إن العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقــدا في ذلك أنني أحسن صُنعا، وإن كنت لم أرد أن أقوم به، وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن لنا أن نندم عليه.

في أيامنا هذه، يكفي في الغالب إدانة الآخرين من أجل الظهور بمظهر المتخلق النظيف. ولهذا، فإنني من خلال هذه الذكريات التي سأسوقها في هذا الكتاب لن أتناول أحدا سوى نفسي. وأؤكد هنا أنني لا أريد بهــذا تبرير ما قمت به، ولكنني أريد فقط بيان أنه في الوقت الذي يطلب فيــه وطن مَّا من جيشه التصدي لعدو يلجأ إلى الإرهاب من أجــل إرغــام الشعب المترقب على اتّباعه، قصد توليد القمع الذي يخلق عاطفة تجــذب الرأي العالمي نحو صفه، فإنه من المستحيل أن لا يلجأ هــذا الجــيش إلى استعمال كل الوسائل لدحر هذا العدو.

ولكنني أتساءل غالبا ــ ولستُ أحاكم أحدا، وبالأخص أعداء الماضي ــ ما الذي سيحدث اليوم في مدينة فرنسية إذا تعرضت لعمليات إرهابية تحصد أرواح الأبرياء دونما تمييز، ألن نسمع في خضمّ أسابيع قليلة أصوات السلطات العليا آمرة بإيقاف هذا الإرهاب بكل الوسائل؟

فعلى الذين يقرأون هذا الكتاب إذاً أن يتذكروا أن إصدار الأحكــام المتسرعة أسهل من محاولة فهم الأسباب، وأن تقديم الاعتذارات أيسر من عرض الحقائق.

ومن يشابه (خاله) فما ظلم![1]

في عيد القديسين لعام 1954، كنت أشغل في باريس منصبا في مصلحة العمليات التابع لمصلحة التوثيق الخارجي والتجسس المضاد[2]، وتسلمت أمرا بالتحويل إلى الكتيبة 41 للمظليين التابعة لمنطقة سكيكدة، في الجزائر.

وفي نفس اليوم، نزل مئات الجزائريين من الأوراس وقاموا بتنظيم عشرات العمليات الاستعراضية من أجل الدعوة إلى العصيان الموجه لما يمكن تسميته "الشعب المسلم". ولكن الشعب المكون من أشخاص همهم الأول هو الحصول على لقمة عيشهم دون عناء، لم يندمج قط في هذه المجموعات الظلامية المتصارعة فيما بينها غالبا، وهي جماعات متكونة من خليط غريب بين المثقفين وصغار قُطّاع الطرق.

وكانت حكومة (بيير منديس فرانس) - التي تشكلت قبل ذلك بخمسة أشهر بعد سقوط (ديان بيان فو)- قد أظهرت نفسها إلى غاية ذلك بمظهر المتساهل مع الحركات التحررية المغاربية. ولكنها غيّرت من تصرفاتها جرّاء أحداث (ديان بيان فو) وقررت اعتماد منطق الحسم لطمأنة المستعمرين المقيمين في الجزائر.

[1] اختار المؤلف لعنوان فصله هذا اقتباسا شبه كلي لعنوان أحد الأعمال الكبيرة للأديب الفرنسي (مارسيل بروست)، والذي يحمل عنوان (***Du côté de chez swann***)، مع استبدال اسم بطل القصة باسم أحد أخواله، ويدعى القائد (سوال)، ونحن بدورنا آثرنا ـــ نظرا للمعنى الجمالي والتوافق مع غرض الكاتب من عنوانه ـــ استبدال الترجمة الحرفية لعنوان فصله هذا باقتباس لطيف لبيت من رجز رؤبة بن العجاج يمدح فيه الصحابي الجليل عدي بن حاتم الطائي، ابن (حاتم الجود) الذي تضرب العرب به المثل في الكرم والجود، ويقول رؤبة: [بأبِهِ اقتدى عديٌّ في الكرمْ ومن يُشابه أبه فما ظلمْ]، مع تعديل طريف يلحظه القارئ.

[2] يذكر المؤلف أن هذه المصلحة التي تُعرف اليوم باسم (المديرية العامة للأمن الخارجي) كانت مكلفة بالعمل السري خارج التراب الوطني ضد كل ما يمس مصالح الجمهورية الفرنسية، بما في ذلك اللجوء إلى استعمال العنف ضد الممتلكات والأشخاص، وأنها كانت تملك وحدة مصالح خاصة من أجل تنفيذ أعمالها تحمل اسم (الصدمة 11) التي أنشأها المؤلف نفسه سنة 1946.

وهكذا صرح (بيير منديس فرانس) في 12 نوفمبر أمـــام المجلـــس الـــوطني أن الحكومة لن تفاوض ولن تتنازل عن مواقفها على الإطلاق.

ولما اعتبر (فرانسوا ميتيران) وزير الداخلية والمكلف بالمقاطعة الفرنسية في الجزائر من جانبه أن الشرطة كانت عاجزة عن حفظ النظام الجمهوري في الجزائر، أرسل مدير مكتبه إلى وزارة الدفاع الوطني من أجل الحصول على دعم، وصرّح الـــوزير في نفس اليوم أمام النواب دون تورية قائلا: "أنا لا أقبل التفاوض مع أعداء الوطن، إن المفاوضات الوحيدة هي الحرب".

وهكذا أخذ الصراع طابعا رسميا، حتى وإن لم يطلق على هذه الحرب ســـوى مصطلح "حفظ النظام".

وتم إيفاد مدد صوب الجزائر، وكان من بينهم الجنود الذين يـــؤدون الخدمـــة الوطنية ويحملون السلاح لأول مرة.

غير أننا نحن رجال الظل، كنا نعلم أن هذه الحرب قد بدأت قبل ذلك بكـــثير. وكانت الحكومة الفرنسية تعلم ذلك أيضا.

لقد شرعت مصلحة العمليات التابعة لمصلحة التوثيق الخـــارجي والتجـــسس المضاد - وكنت توليت شؤون إدارتها بالنيابة في فصل الربيع عندما كان (جـــاك مورلان)[3] في مهمة - منذ قرابة سنة كاملة في تحضير عمليات تهدف إلى منع إمداد المتمردين الجزائريين بالسلاح. ولو كنت متواجدا في "الملبنة" بعد ذلك - هكـــذا كنا ندعو مصلحة التوثيق الخارجي - كنت سأشارك حتما في مثل هذه العمليات، ولكن الظروف قادتني إلى أرض المعركة للمشاركة مباشرة في العمليات العسكرية.

لقد كان (مورلان) يقول بأن ذلك لن يكون سوى مـــرورا قـــصيرا بإحـــدى الوحدات النظامية للجيش، ثم هو مع ذلك سيساهم في ترقيتي وييسّرها.. ولكـــنّ قائدي كان ذا خيال شاعري.

---

[3] قائد القوات الجوية ورئيس مصلحة العمليات.

كان القائد (مورلان) لطيفا معي، غير أنه أغاظني إلى درجة أني أوشكت فيها على خنقه بيديّ في مكتبه، واضطر إلى تذكيري بزوجتي وأبنائي لكي أطلقه من قبضة يدي. ولكنه لم يكن قَطُّ حقودا، ولهذا قام بتعييني نائبا له يخلفه في حال غيابه.

واضطررت إلى انتظار نهاية شهر جانفي 1955 بعد تحويلي إلى الكتيبة 41 منذ فاتح نوفمبر 1954 لكي أركب الباخرة التي تربط مارسيليا بسكيكدة.

وعندما كانت رجلاي ترقيان درج سلالم المعبر، لم أعبأ بتهديد السحاب الكثيف الذي بدأ يحجب النور المنبعث من السماء، ويوحي من ثَمَّ، برحلة مضطربة. لقد كنت هادئا وجد مرتاح. بل يمكن القول حقيقةً إنني كنت منتشيا مثل المخمور.

وعلى الرغم من ارتدائي الزي العسكري، كنت أردد نغمي المفضل، (الهارب من الجندية) لـ (بوريس فيان)، وكان منع هذا النغم من الإذاعة سببا آخر يجعلني أتمتع بترديده أكثر.

كنت حينها ابن السادسة والثلاثين، وكنت عندئذ - وإن كنت لا أحبذ هذا الاسم - عميلا سريا.

وبطبيعة الحال، كنت إذا سئلت عن طبيعة عملي أجيب بأنني قائد في الجيش الفرنسي، وإذا كان ثمة إلحاح شديد أضفت أنني أنتمي لجيش المظليين. وذلك أني كنت في الظاهر أعيش حياة عادية وهادئة كتلك التي يحياها أي رجل متزوج ورب عائلة.

لم يكن شيء من طبيعة تكويني يسمح بالتصور، ولو للحظة فقط، أنني كنت موجها لمغامرات كهذه: فلا المرتبة الأولى التي نلتها في اللغة اللاتينية أثناء المسابقة العامة، ولا تحضيري في السنة الأولى بالمدرسة العليا بثانوية (مونتاني) بـ (بوردو) أين كنت زميلا للجامعي المسالم (روبير إيسكاربي) الذي شغل منصب محرر في جريدة (لوموند)، ولـ (أندريه مندوز) الذي برز بعد ذلك بصفته أحد أبرز

المثقفين الذين ينتقدون الجيش الفرنسي بحجة "القضية العادلة" التي تدافع عنها جبهة التحرير الوطني، ولا حتى شهادتي الجامعية في الدراسات اللغوية اللاتينية والإغريقية. كل ذلك لم يكن يسمح بتصور أنني سأشق طريقي في الدروب العسكرية. لقد كان كل هذا يُعدّني لمستقبل جامعي هادئ. وفي أسوأ الظروف، كان يمكن أن أكون دبلوماسيا.

كان هذا بدون شك ما يتمناه أبي، فلقد كان بدوره مؤرخا وصديقا لـ (كوليت)[4]، قضى حياته بين الدوائر الإدارية ومكاتب الوزارات، وذلك قبل أن يصبح أمينا عاما لصحيفة من صحف الضواحي، غير أنه يبدو لي بعيدا ذلك الوقت الذي كنت أعرض عليه (برو آرشيا) لـ (سيسيرون)[5] و(دون خوان) لـ (لينو)[6] عن ظهر قلب.

وبعدئذ، اندلعت الحرب العالمية الثانية.

وفي 27 نوفمبر 1942، قمت باتخاذ أحد أهم القرارات في حياتي، فبعد جنوحي نحو مستقبل عسكري، مؤيدا في ذلك (شارل ديغول)، صممت على الالتحاق بالمصالح الخاصة.

وهكذا كنت سأقوم، من أجل مصلحة بلادي - وفي الخفاء - بعمليات يمجُّها الضمير العادي. عمليات تتم تحت غطاء القانون، ومن ثَمَّ تأخذ طابعها السري، كالسرقة والقتل والتخريب والإرهاب.

[4] هي الكاتبة الفرنسية "سيدوني غابرييل كوليت" (1873–1954)، عملت في ميدان الصحافة والتمثيل، من مؤلفاتها سلسلة (كلودين) بمساعدة زوجها الأول (هنوري غوتييه فيلار)، و(عزيزي).

[5] فيلسوف وسياسي روماني (106 ق.م – 43 ق.م).

[6] شاعر نمساوي اسمه الكامل "نيقولاوس نيمبش فان ستريهلينو" (1802–1850)، وهو كاتب يقول المؤلف عنه إنه كان ولا يزال أحد كُتّابه المفضّلين.

لقد علموني كيف أفتح الأقفال المغلقة، وكيف أقتل دون أن أترك أثرا، وكيف أكذب، وكيف أصبح غير مبال بمعاناتي الشخصية، أو بمعاناة الآخرين، وعلموني كذلك كيف أنسى وكيف أُنسى، وكان كل ذلك من أجل فرنسا.

لم يكن لهذه الرحلة إلى الجزائر رسميا أدنى علاقة أو ارتباط مع مهمة جديدة كان يمكن أن أقوم بها. ولكن، إذا كنا ننتمي إلى أوساط المصالح الخاصة، فإننا لا يمكن أن نتخلص منها حقيقة التخلص. وإذا كنا أحد عملائها، فإن كل ما نقوم به يكون متدثرا بدثار الغرابة.

ومثلما كنت أشغل في مصلحة التوثيق الخارجي والتجسس المضاد مهمات استراتيجية لمدة بضع أسابيع، كنت أقود في نفس الوقت (الـ 29) - هكذا كنا نطلق على مصلحة العمليات - بالنيابة.

لقد قضينا سنة مضطربة جرَّاء انتهاء الحرب في الهند الصينية، وكان الخوف من الاجتياح السوفييتي يقودنا إلى إنشاء مخازن للسلاح قصد تنظيم المقاومة إن حدث ثمة اجتياح فعلي. وجاء الكفاح المسلح في الجزائر ليضاف إلى جملة هذه المخاوف.

غير أنه في تلك الحقبة، حسب العبارة التي ما فتئت المصالح الحكومية تكررها، كانت "الجزائر هي فرنسا"، ولهذا لم يكن لمصلحة التوثيق الخارجي الحق في التدخل في التراب الوطني - نظريا على الأقل.

وهكذا بدأنا العمل خارج الحدود، وأصبحت هذه العمليات أكثر حدة بعد مغادرتي نحو الجزائر.

كانت هذه العمليات موجهة ضد من كان يبيع السلاح لجبهة التحرير في الجزائر، ومن كان ينقله عبر البواخر، وبفضل عمليات (روني تارو) ورجاله، غرقت بواخر عديدة دون تفسير في موانئ بحر الشمال أو البحر الأبيض المتوسط. كما أن بعض الفرق الأخرى اهتمت بمهرِّبي الأسلحة، هؤلاء المهربين الذين أصابت كثيرا منهم توعكات غريبة أو عرضت لهم - فجأة - هواجس انتحارية!

ولم يبق غير التدخل المباشر ضد التمرد نفسه، ومن أجل هذا كان يجب أن تطأ أقدامنا أرض الجزائر.

لم أكن أدري – في حقيقة الأمر – إن كانت هذه السفرية نحو سكيكدة تندرج ضمن إطار عملية جديدة، عملية قذرة حضرها لي القائد (مورلان)، أو أنها كانت اعتراضا طارئا في مسيرتي المهنية. وإذا كانت ثمّة مهمة وراءها، فإنني كنت أجهل – حينها – ما هي طبيعتها وماهيتها.

لقد مضت اثنتا عشرة سنة وأنا منغمس في المصالح الخاصة.

في يناير 1943، أرسلني (شارل ديغول) لتحرير الجنرال (كوشي)، أحد عمالقة الطيران في الحرب العالمية الأولى (1914- 1918)، والذي كان محتجزا في أحد معتقلات فيشي، قرب (فال لي بان)، وذلك أنه أهان الماريشال (بيتان) ومحيطه في جريدة سرية (غير شرعية)، وهذا ما أدى إلى حبسي ثمانية أشهر في سجن (بامبولين)، كما قمت بمهام أخرى من لندن بصفتي أحد ضباط الحلفاء (6) حيث قفزتُ فوق (الأرياج) ببدلة عسكرية بريطانية، من أجل إعانة المقاتلين في الفيدرالية الفوضوية الإيبيرية.

وقفزت كذلك في أبريل 1945 بزي عسكري ألماني، قرب برلين، أين أُوقفت من طرف السوفييت بعدما نجوت من وحدة عسكرية ألمانية. وكان هؤلاء السوفييت تحت قيادة الماريشال (جوكوف) الذي ظن أنني أنتمي لوحدة المصالح الخاصة (شارلمان)، ونجوت بأعجوبة من رصاصة كانت تتجه صوب قفاي من طرف الشرطة السرية السوفييتية.

واشتغلتُ بعد ذلك مع (جاك فوكار) قبل أن أتجه صوب الهند الصينية، ثم أنشأت كتيبة (الصدمة 11) في حصن (مون لوي)، قرب (بيربينيان).

ولما توجهت مجددا إلى الهند الصينية، كنت قد قمت بتنفيذ مهام في خطوط "الفييتمينه"، ودخلت متخفيا – بطريقة غير شرعية – إلى الصين لأفاوض الوطنيين هنالك.

وإلى وقت قريب من ذلك، كنت منشغلا بفرع التعليمات في المـــصلحة 29. المهم، لقد كنت متخصصا في المهام الصعبة.. والمهام القذرة كذلك.

لقد أخذت مكاني ضمن الفرقة الأولى للمقاتلين المظليين في الهند الصينية، وهذه الوحدة كانت تتشكل في الأصل من ثلاث فرق، غير أن الفريق الثاني الذي كنت أنتمي إليه تلقى خسائر فادحة اضطرت إلى حلّه بعد ذلك.

أما الفرقتان اللتان كانتا من الناجين، فإنهما قـــد نُقلتـــا إلى ســـكيكدة، وتم إشراكهما مع فرقة ثالثة للمظليين من فيلق الغرباء الذي لم يكن موجودا سوى في الأوراق.

ولهذا السبب كنت جد منفعل ومغتاظ ضد ما كان يجري في الهند الصينية، لقد فقدت أصدقاء كثيرين في (ديان بيان فو) ولم أكن أريد أن يتكرر ذلك مجددا.

وبسبب هذا الإدماج، صارت فرقة المظليين تحمل اسم (الكتيبة 41 للمظليين)، وبما أنّه قد تم تحويلي هناك، فإن ذلك كان – نوعا مـــا – رجوعـــا إلى المـــواطن المعتادة.

كانت الباخرة شبه فارغة، عدا بضعة عشر دركيا وبعض المدنيين الذين استقلوا متنها.

وعوّض نائب القائد قائدَ السفينة الذي كان يعاني من احتباس صوتي بـــسبب كثرة صراخه لإصدار الأوامر وسط عاصفة هوجاء أثناء رحلته السابقة. وتناولنـــا الغداء معا ونحن متشبثون قدر المستطاع بالطاولة، بينما كانت مياه البحر الأبـــيض المتوسط تموج وتضطرب.

في اليوم الموالي، عندما رجع الهدوء وظهرت سواحل الجزائر في الأفق، كنـــت أفكر في الأيام التي قضيتها سعيدا في هذه المنطقة سنوات قبل ذلك.

في سنة 1941، كنت في الجزائر بصفة مرشح، وكان تحت إمرتي اثنـــان مـــن صفوف الضباط العرب، في إحدى وحدات القنّاصـــين بـــالأوراس. في منطقـــة

التلاغمة، إحدى المناطق الصغيرة التائهة في الصحراء، 50 كيلومترا جنوب قسنطينة.

كنت سعيدا هنالك، أولا لأنه كان لديّ الوقت الكافي لمواصلة الدراسة[7]، وكذلك لأني كنت موجودا في إحدى الوحدات التي أنشئت بصفة دائمة في الجيش الفرنسي.

ويجب أن أعترف أننا كنا وقتئذ نشبه إلى حدّ ما أحصنتنا، حيث كان حصاني أنا يُدعى (بابوان).

وفي أحد الأيام، رجعنا - مسرعين - من إحدى المزارع صحبة القائد المسيحي. لقد كان رياضيا شارك في أولمبياد برلين ضمن الألعاب الخماسية، ولكنه رغم ذلك كان كثير السقوط من على ظهر الحصان.

وفي محاولة لاختباري فقط، سلم إليّ القائد سلة مليئة بالبيض لأحملها في يدي، وكنت حريصا على أن لا أكسره، لأن هذا النوع من التمارين يضع أمام المحك - تقريبا - كل تاريخي المهني. وكان للقائد المسيحي خطيبة جميلة، والبيض الذي نجحت في الحفاظ عليه دون تهشيم كان هدية لها.

لقد لعبت الأحصنة لأكثر من مرة دورا مهما في حياتي. فلقد حملني والدي فوق السرج منذ أن بلغت الثامنة من عمري، والفروسية كانت - دون شك - سبب ميولي العسكرية.

وعندما كنت مراهقا، كنت أمقت وحدات المشاة، وكنت أريد أن أصبح فارسا ضمن الوحدات المدرعة مثل الشاعر (لينو) أو مثل أحد أخوالي، القائد (سوال)، ذلك الخال الذي كانت صورته معلقة في غرفتي في بيتنا الكبير سابقا.

إن القائد (سوال) يُعدُّ بمثابة البطل العظيم في العائلة، وكنت قد شيّدتُ أساطير تتعلق بالمغامرات التي قادته - مثلي تماما - إلى الجزائر.

---

[7] كان المؤلف يُحضر رسالة في الدراسات العليا تحت عنوان "التعبير الجمالي عند (فيرجيل)"، وهو شاعر لاتيني (70 ق.م ـ 19 ق.م).

وبسبب اعتزازي بهذه القرابة، لُقّبتُ بـ (القائد سوال) في المصالح الخاصة، لما جرت عليه العادة من استعارة الألقاب فيها.

وتعلمت اللغة العربية في التلاغمة، ولكني لم أكن لأستعملها لأنّ الوحدة التي أنتمي إليها لا تتطلب مني ذلك. وكذلك لأنه باستثناء اللهجة العامية، لم يكن رجالي يتكلمون سوى الفرنسية.

لم يدم هذا المكث سوى سنة واحدة، ومن أجل أن أصبح ضابطا، كان يجب عليّ أن أمر بمدرسة وحدات المشاة في (سان ميكسان) بضواحي العاصمة باريس.

كانت سواحل الجزائر تقترب شيئا فشيئا، و لم أستطع حينها منع نفسي من التفكير بأنّه بناء على تجربتي القتالية، كان من السهل على المتمردين أن يحصلوا على أسلحة عن طريق البواخر ذات الحمولة الصغيرة، وذلك لأن الجنود الفرنسيين الذين ألهتهم المواجهات الداخلية، لم يكونوا - بالتأكيد - ذوي عدد كاف يسمح بمراقبة السواحل، ثم إن شيئا مثل هذا لو تمّ تنفيذه لأثّر سلبا على نفسيّاتهم ومعنوياتهم.

وبينما كانت الباخرة تدخل على مهل إلى الميناء وأنا أنظر إلى هذه المدينة البيضاء المجابهة للبحر، تذكرت مرة أخرى جنودي، لم يكن من الممكن رؤيتهم لأن وحدتي كانت قد أبيدت أثناء حملة تونس في مايو 1943م.

غير أن الجو كان جميلا، وكان لزاما عليّ التفكير في الأحياء فقط.

لقد تركت أصدقاء في الجزائر. وكنت سألتقي رفقاء السلاح في الهند الصينية، وكان أحد أقربائي يشغل منصبا في الخزينة العامة بالجزائر العاصمة.

أما بقية أسرتي، فكانت ستلتحق بي بعد ذلك.

سكيكدة (1955)

عند نزولي من المرفأ، وجدت سيارة عسكرية من نوع (جيب) في انتظاري كي توصلني إلى مقر الكتيبة التي اتخذت أحد المنازل مقرا لها على بعد حوالي خمسمائة متر من الميناء، أما باقي الوحدة فقد كان متفرقا ما بين المدينة وقرب أرضية الطيران، وهي أرضية أنشئت فيها مدرسة للقفز بالمظلات.

ولمّا قدّمت نفسي، استقبلني العقيد الأنيق (كوكبورن) قائد الوحدة بلباقة بريطانية، وبعدما استمع إليّ وهو يبتسم - كان ذلك ولا شك من أجل لهجتي البدوية - انتقل مباشرة إلى صلب الموضوع، فقال:

- من حسن الحظ أنك قدمت من المصالح الخاصة، فأنا في حاجة إلى خبير في الاستعلامات.

- وأنا جدُّ مسرور بهذه المصادفة، غير أنّه هناك مشكلة.

- وما هي؟

- لعلهم أخطئوا في إبلاغك، وذلك لأنني لست مختصا في الاستعلامات، ولكني قدمت من مصلحة العمليات الخاصة.

- أنا على اطّلاع جيد بطبيعة عملك الجديد، وإذا كانت العمليات الخاصة بُغيتك، فسوف تجد ضالتك هنا. ينبغي أن لا تنخدع بهدوء المدينة، فضواحيها تشهد اضطرابات كثيرة، حتى إني أرسلت جنودي في مهمات هناك.

- أين هم حضرة العقيد؟

- هناك فرقة في الأوراس، بينما توجد فرقة أخرى قرب الحدود التونسية.

وعلمت حينها أن وحدات الكتيبة كانت تشارك بانتظام في عمليات عسكرية ضد المتمردين الذين يهاجمون القرى والمزارع النائية، فيسرقون ويقتلون المستوطنين من "الأقدام السوداء".

وهكذا صرت ضابط استعلامات.

إنّ هذا النوع من العمل لا يمكن أن يكون له وجود إذا توفر الأمن والسلم، ورغم أهميته في الظروف التي تعرفها البلاد، لم يكلف أحد نفسه عناء تشكيله، ولهذا كان عليّ أن أعيد إنشاءه، وانطلاقا من الصفر، لأن العقيد لم يزودني لا بتعليمات ولا حتى بأرشيف.

يُكلّف ضابط الاستعلامات في أيام الحروب، أساسا، بجمع الوثائق والمعلومات اللازمة التي تُعين على بناء العمليات الميدانية، هذه المعلومات تتعلق بأرضية القتال وبالخصم كذلك، غير أنّ أعمالا مثل هذه لا تلقى احتراما أو تقديرا عند العسكريين. ولكي يتسنى القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، كان ذلك يتطلب ذهنية خاصة يمكن لها أن تتحمل الأذى الناجم عن تهكم الآخرين.

ثم إن نجاح عمل ضابط الاستعلامات مرهون بقيمة المُشرف عليه ومدى الاهتمام الذي يوليه لمجال الاستعلامات، غير أنه نادرا ما يهتم القواد العسكريون بهذا المجال.

وأدركت من ثمّ أن إيفادي إلى الجزائر لم يكن مجرد هدية كان يمكن أن تُقدّم لي.

وقادني سائق السيارة بعد ذلك إلى شقتي المجهزة.

كانت سكيكدة مدينة صغيرة يقطن بها 21 ألف نسمة، وتمكنت بسرعة من معرفة جميع الناس.

وبدأ كل شيء بالعلاقات الاجتماعية على طريقة الأرياف، حيث كنت أُعزم للغداء وفي الحفلات، أين كانت هذه الإقامة تحت الشمس الإفريقية الملهبة تظهر بمظهر الريف.

وكنت أملك بعض الوقت خارج ساعات العمل لكي أتجوّل على الشاطئ وأقرأ وأسمع الراديو، بل وأذهب أحيانا إلى السينما. وبعد بضعة أسابيع، ظهر جليا أن عملي لم يكن قط للراحة والاستجمام، حيث بدأت أوقات التسلية تتناقص شيئا فشيئا لتفسح المجال أمام العمل المُضني.

لقد كان عملي واضحا من حيث المبدأ، غير أنه كان جد معقّد بالنظر إلى الوسائل المتاحة لي، كان يجب عليّ أن أجمع كل المعلومات المتعلقة بالتمرد والمتمردين، سواء كانت هذه المعلومات واردة من العسكريين أو من المدنيين.

وهناك طريقتان يمكن من خلالهما الحصول على المعلومات: أن تنتظر قدومها إليك أو أن تذهب أنت للبحث عنها.

وفي ظرف أسابيع معدودة، ازدادت حركة التمرد ثباتا وصلابة، وبدأ - حينها - العد التنازلي، وكان دوري يحتّم عليّ أن أكون أكثر هجوميا.

تمّت الإطاحة في فرنسا بحكومة (بيير منديس فرانس)، وكان الوافد الجديد (إيدغار فور) يأمل تسوية الملفات المختلفة في المغرب الكبير في أقرب الآجال، ولهذا قررت باريس التخلص من جبهة التحرير في أسرع وقت ممكن، حيث انضافت الاعتبارات السياسية إلى تزايد الاهتمام العالمي بالقضية الجزائرية.

إنّ التخلص من جبهة التحرير كان يعني وجود إرادة سياسية فعلية لذلك، ولكنه كان يعني كذلك استعمال كل الوسائل الملائمة.

لم تكن الشرطة مهيأة لمثل هذا النوع من المهمات، و لم تكن حتى الإطارات العسكرية مدربة أيضا على هذا النوع من الحرب، أين نجد جيشا كلاسيكيا يجابه ويواجه حركة تمرد مصدر نموها وبقائها متعلق بمدى اختلاطها بالمدنيين وإقحامهم في كفاحها عن طريق الدعاية والإرهاب والتخويف، ولهذا بدأت الحكومة في إرسال من يقوم بالتطهير، وكنت - دون شك - أحدهم.

كان يجب عليّ أن أتعرف على زعماء جبهة التحرير وأحدد مواقعهم ليتمّ القضاء عليهم في سرية وصمت، وكنت أعتقد أن الحصول على معلومات حول هؤلاء الزعماء كان سيقودني حتما إلى إلقاء القبض على متمردين واللجوء إلى استنطاقهم.

كانت سكيكدة تقع في الشمال القسنطيني، وهي المنطقة التي كانت جبهة التحرير فيها آنذاك أكثر وأحسن تموقعا، وإذا كان هناك تصاعد في وتيرة العنف في الجزائر، كان يمكن تحديد أن منطلق ذلك هو هذه المنطقة بسهولة.

لم يبق إلاّ أن أعرف أين، متى وكيف.. وكانت هذه هي طبيعة عملي.

من أجل مباشرة هذا العمل كنت محتاجا إلى فريق، وسرعان ما وضع العقيد ضابطيه تحت تصرفي، من بينهم رقيب يدعى (كمال إيصولح) وعريف أول يُدعى (بيير ميزيري).

كان (إيصولح) ينتمي لعائلة كانت ضمن أفراد الجيش الانكشاري التركي المتواجدة بمنطقة القبائل تحت إشراف السلطان، وكان دورهم هو القيام بحفظ الأمن مقابل الحصول على مزايا وأراضي.

والتحقت هذه العائلة الميسورة بالجانب الفرنسي بعد غزو الجزائر سنة 1830، بل إنّها أمدت الجيش الفرنسي بعدة إطارات، آخرها كان والد كمال الذي أنهى حياته قائدا في الجيش. أما كمال، فإنّه التحق بالجيش وعمره ثماني عشرة سنة بعدما تلقى تحضيره العسكري ليصبح عريفا أول، وشارك في حرب الهند الصينية كقنّاص، وأبيدت الكتيبة التي كان ينتمي إليها، وكان كمال أحد الناجين القليلين من أفرادها. وبعد ذلك تطوع ليعاد دمجه ضمن وحدات المظليين، ثمّ حُوّل إلى الوحدة الأولى للمظليين وعيّن رقيبا. لقد كان باهرا لمعرفته بكل اللهجات العامية العربية والبربرية المُتكلّم بها في العالم الإسلامي. وإلى تلك الساعة، لم يُستعمل هذا العنصر الثمين وفق قيمته الحقيقية، حتى أن العقيد كلفه بالإشراف على مصلحة البريد في الجيش، وفي ظنّه أنّه لا يمكنه الهرب بالمال الخاص بالحوالات بما أنه كان غنيا.

أما (بيير ميزيري)، فإنّه كان ينحدر من عائلة فرنسية تقطن بتونس، ولهذا تمكن من تعلم عربية شمال إفريقيا بإتقان، وكان هو الآخر قد التحق بالجيش وعمره 18سنة وشارك في حرب الهند الصينية بصفته مظليا.

مع هذين الشابين الحيويين، شعرت منذ البداية بالثقة وشرعت في إنشاء شبكتي الخاصة بالمعلومات، وقمت بزيارة كل الأشخاص الذين ظهر لي أنهم يمكن أن يكونوا أعوانا، وكان أولهم النقيب (باستوي) المكلف بالحفلات العسكرية، وهو أحد الجنود المظليين القدماء، حيث أخبرني أنّه يكتب تقريرا كل ثلاثة أشهر وفق ما يمليه عليه منصبه، وكانت مصالح الاستعلامات العامة تُمدُّ له يد المساعدة.

لم أكن قد تعاملت قطُّ مع أجهزة الشرطة، ولعل هذا هو الشيء الذي جعلني لا أحسن التمييز بين مختلف مصالحها، وبفضل تعليمات (باستوي)، استطعت أن أفهم بسرعة أنّ "المعلومات العامة" هي جهاز الاستعلامات التابع للمحافظة، وهكذا اتصلت بالمفوض (آرناسان) الذي كان مسؤولا عن هذه المصلحة، ونصحني بأن أقابل معاونَيْه: المفوض (بورج) رئيس الشرطة القضائية، والمفوض المركزي (ألكسندر فيليبرتي) المكلف بالأمن الحضري.

وربطتُ مع الجميع علاقات حميمية، وأصبحوا من حينها أصدقاء لي.

و لم أنس جهاز الدرك كذلك، وكانت المصلحة التي عقدت معها العلاقات الأكثر ربحا ومغنما دورية أبحاث يقودها الماريشال (بوزوني)، وهو لم يكن على وفاق مع قائدهإلاّ أنّه كان يحسن اتخاذ الإجراءات ابتداء.

وعندما كسبت ثقة الجميع، أوضح لي الشرطيون دون تحوير أو لف الحالة المعقدة التي يواجهونها، وكذا التهديدات بالعمليات الإجرامية التي كانت تخيّم على المدينة، إضافة إلى ذلك طريقة العمل التي كانوا يلجأون إليها مقارنة بالإمكانيات القليلة المتوفرة في أيديهم.

لقد أفهموني بسرعة أن أحسن طريقة لاستنطاق إرهابي يرفض الاعتراف هي اللجوء إلى التعذيب. كانوا يتكلمون بصوت منخفض - ولكن دون حياء - حول هذه الأعمال التي كان الجميع في باريس يعرفون أنها تُستعمل، والتي شرعت بعض الصحف الفرنسية في التكلم عنها قبل وصولي إلى سكيكدة.

لقد كنت ألجأ إلى استنطاق السجناء ولكني لم أعذب أحدا من قبل، وكنت أسمع أن طرقا من ذلك النوع قد استعملت في الهند الصينية، ولكن لظروف خاصة، غير أن كتيبتي لم تكن تلجأ لهذا النوع من الأعمال، ولم تكن أغلب الوحدات المشاركة في حرب الجزائر إلى حينها قد واجهت هذا النوع من المشاكل.

ونظرا للمهنة التي اخترتها، قمت بقتل بعض الأشخاص، وفعلت أشياء ترهق الأعصاب، غير أني لم أكن أظن أني سألجأ يوما ما إلى التعذيب. كان في تصوري أنه يمكن أن أتعرض أنا شخصيا إلى التعذيب، ولكنني لم أتصور الواقعة بالعكس: أن أقوم أنا بتعذيب الآخرين.

بعد فترة وجيزة من انضمامي إلى المصالح السرية، وجدت نفسي في المغرب سنة 1942، قبالة ضابط طيار تابع للأمن العسكري يُدعى القائد (دالما)، والذي رأى من الضرورة تنبيهي قائلا:

- هل تعلم ما ستواجهه، على الأقل بدخولك في المصالح الخاصة؟

- نعم حضرة القائد، أنا أُعرِّض نفسي للقتل بذلك.

فقال (دالما) وهو يرفع عينيه إلى السماء:

- يا عزيزي، إذا قُتلت فإنك سترتاح، غير أنّه قبل ذلك سوف تُعذّب، والتعذيب - كما سوف ترى - أقسى من الموت.

أثناء فترة المقاومة، ثم داخل مصلحة العمليات، أخبرني أصدقائي بأنه يُعدُّ من المستحيل أن يصمد الإنسان أمام التعذيب، وأنّه تأتي أوقات يصبح من الشرعي والطبيعي أن يتكلم فيها الإنسان. كان على المرء أن يصمد مدة 48 ساعة على الأقل وهو يصرخ قدر المستطاع، وذلك أن هناك معذّبين أقل مقاومة من المعذّبين، وذلك الصراخ قد ينفع في إثارتهم ليتوقفوا عن أعمالهم.

ثم إن الصراخ ينفع إذا أحسسنا بالألم، وكانت هذه الـ 48 ساعة تسمح للمهدَّدين بالافتضاح إذا اعترف المعذَّب باتخاذ الاحتياطات اللازمة.

في أقسى الظروف والأحوال، كنا نملك سما نتجرعه، وكل شيء إذ ذاك ينتهي.

في كل مرة كنت آخذ فيها مقعدي في الطائرة التي تُقلع ليلا، كنت أفكـــر في ذلك، كنت أتوقع أن أُحرق وأن تُنزع أظافري وأسناني، مثل ما فُعل بأحد رفقائي.

هذه الأفكار كانت ترد عليَّ دائما وأنا فوق (بحر المانش) لّما يقترح علينا الطاقم الأمريكي أخذ جرعات من (الويسكي)، وكنا نمتنع دائما.

وحين تبدأ المدافع المضادة للطائرات في استقبالنا بإضاءة السماء، كنا نعرف أننا فوق السواحل الفرنسية. لقد كانت الطائرة ترقى إلى غاية 3000 متر من أجـــل تجنب القنابل، لم نكن نقول حينها كلمة واحدة، كنت أتذكر القافلة التي تُـــساق إلى الموت، لم أكن أريد أن تُعصب عيناي، وبعد ذلك تُفتح الباب بغتة.. للصمت والفراغ.

لقد كانت شرطة سكيكدة تمارس التعذيب إذن، مثل باقي الشرطة في كل أنحاء الجزائر، وكان مسؤولوهم على دراية تامة بذلك.

لم يكن أولئك الشرطيون جلادين أو وحوشا، ولكنهم كانوا أناسا عـــاديين، كانوا أناسا مخلصين لوطنهم، وكانت روح الواجب متغلغلة في أعمق أعمـــاقهم، غير أنّ الظروف حينها كانت قاهرة. لم ألبث طويلا حتى اقتنعـــت بـــأن هـــذه الظروف كانت تفسر وتبرر تلك الأعمال، وعلى الرغم مـــن قـــساوة التعـــذيب وإثارته، كان استعمال هذا النوع من العنف - الذي كان غير مقبول في الظروف العادية - أمرا ضروريا لا منأى عنه في مثل هذه الظروف التي تتجاوز الحدود.

إذا كان الأمر يستدعي القيام باستنطاق رجال قد أراقوا دماء الأبرياء - ولـــو تحت غطاء مبدأ أو عقيدة - فإن التعذيب ضدهم سيكون شـــرعيا إذا اســـتدعت الضرورة ذلك.

إنّ معلومات يُحصل عليها في الوقت كان يمكن لها أن تُنقذ عـــشرات الأرواح البشرية، وكانت إحدى حجج الشرطة للجوء إلى التعذيب جدُّ مثيرة بالنسبة لي.

كنا نتكلم - بحياء - عن الصعوبات التي نواجهها في مهنتنا ونحن نحتسي كأسا، فقال أحد أعوان الشرطة الذي لمح أن مشكل التعذيب قد أثار حفيظتي و لم أستطع تقبُّله:

- تخيّل لحظة واحدة بأنك تعارض - انطلاقا من المبادئ - ممارسة التعذيب، ثم إنك توقف شخصا متورطا في التحضير لعملية إرهابية. المتهم يرفض التكلم وأنت لا تُصر، وهكذا تنفَّذ هذه العملية التي تحصد أرواح الأبرياء، ماذا يمكن لك قوله لأقرباء الضحايا؟ ماذا يمكن لك قوله - مثلا - أمام والدي طفل مُزّقت أشلاؤه جرّاء انفجار قنبلة، من أجل تبرير موقفك بأنك لم تستعمل كل الوسائل اللازمة حتى يتكلم المتهم؟

- لا أريد أن أجد نفسي في موقف كهذا.

- نعم، ولكن تصرّف كما لو أنك كنت ستقفه، حينها سترى أيهما أصعب: أن تعذّب إرهابيا أو أن تشرح لأقرباء الضحايا بأنه يحسن بنا أن نغُضَّ الطرف أمام مقتل عشرات الأبرياء على أن نعذّب متهما واحدا.

إن مراجعة قصيرة لهذا المثال الذي ضربه أحد أعوان الشرطة كانت كافية للقضاء على شبهاتي الأخيرة، واستنتجت حينها بأنه لا يوجد أحد له الحق في محاكمتنا، لأنه حتى وإن اضطرتني طبيعة عملي إلى فعل أشياء غير حميدة فلن أندم على ذلك أبدا.

أغلبية الجنود الفرنسيين الذين ذهبوا إلى الجزائر كان لديهم علم بوجود التعذيب، ولكنهم لم يطرحوا أسئلة كثيرة لأنهم لم يجدوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع هذه المشكلة.

وكانت أقلية منهم تفعل ذلك بسخط، أكيد، ولكن دون ندم.

كان الذين ينددون باستعمال التعذيب - طبعا - من المتعاطفين مع جبهة التحرير، وبعض المثاليين في البلد الأم (فرنسا)، والذين لو كُلفوا باستنطاق الإرهابيين، لكانوا استعملوا - ربما - وسائل أكثر وحشية.

وخارج نطاق الشرطة، أقمت اتصالات مع عمال آخرين كانوا من المفترض - نظرا لطبيعة عملهم - أن يجمعوا معلومات نافعة. كان هناك مثلا (بول) مهندس المياه والغابات الذي تحوي مصالحه منازل غابية متوزعة في كامل تراب الوطن، وكانت هذه المنازل تحت إدارة بعض المسلمين الذين تبنوا طروحات فرنسا، وهي تشكل شبكة بإمكانها جمع وإيصال معلومات ثمينة.

كما أعانني القاضي (فوغليماتشي) كثيرا، وهو من منطقة (كارجس)، أحد مناطق كورسيكا، أين يقترب المذهب الكاثوليكي من الطقوس الأرثوذكسية.

ونصحني العقيد (كوكبورن) بلقاء النقيب (دوكاي) الذي كان يشرف على مدرسة القفز.. وأخيرا التقيت بواحد كنت أعرفه من قبل!

كان (مارسيل دوكاي) في السابق جنديا متنقلا قبل أن يتحوّل إلى مظلي، والتقينا في الهند الصينية، كما أنني أعْرف ميله المفرط إلى الصيد. وتتواجد في البراري المحيطة بسكيكدة خنازير وطيور حجل، وحتى إن كان الصيد - رسميا - ممنوعا، فإني أعلم أن (دوكاي) لا يمكنه التخلي عنه أبدا.

بعد هذه الاتصالات، بدأت - بصبر وتأن - في نسج شبكتي، حيث كان كل مُخبر يشكل خيطا من خيوطها: تجار وصناعيون ورجال أعمال ومحامون، بل تعلمت كذلك كيف أستغل الصحفي المحلي وأصحاب المقاهي والحانات وصاحبة الملهى الليلي، وحتى صاحبة المبغى العام.

وبمساعدة رئيس البلدية المحافظ (دومينيك بونكي - كروفو) وأحد مستشاريه، تمكنت من إنشاء ملف خاص بالسكان، وبدأت المعلومات حول جبهة التحرير الوطني تتهاطل عليّ، وكذا حول المتعاطفين معها وحتى أعضاء الحركة الوطنية الجزائرية[8]. كان النظام الذي أنشأته يسير بإحكام ودقة إلى درجة أني تحصلت بسرعة على أسماء متهمين لا يُشك في ضلوعهم في العمليات الإجرامية الأكثر

[8] يذكر المؤلف أن الحركة الوطنية الجزائرية أنشئت سنة 1954 من طرف مصالي الحاج لمنافسة جبهة التحرير الوطني.

الدموية، وعندما يتم إيقافهم، لم أكن لأجد فيهم صورة بطل، وإنما كانوا وحوشا لا غير.

وجاء موعد استنطاقهم.

كنت أبدأ بسؤالهم عما يعرفونه، غير أنهم أفهموني أنهم لا يريدون البوح بأي شيء.. ألا تكون ردة فعل المتهم دائما الإنكار أو لزوم الصمت؟

وهكذا، وبدون وازع من الضمير، أوضح لي رجال الشرطة تقنية الاستنطاقات "الخشنة".

بداية، كان هناك الضرب الذي كان يكفي في الغالب، ثم بعد ذلك تأتي الوسائل الأخرى كالكهرباء والماء.

كان التعذيب بالكهرباء يتم عن طريق مولّدات كهربائية تُستعمل في الأرياف من أجل شحن أجهزة اللاسلكي، وكانت هذه المولّدات كثيرة الانتشار.

وكان التعذيب يتم عن طريق صعق الأذنين أو الخصيتين، وبعدها يطلق التيار بتركيز مختلف. وكما يظهر، فإنّها طريقة قديمة، وأنا أعتقد أن شرطة سكيكدة لم تخترع شيئا في هذا المجال.

وخوفا من هذه الوسائل - أو بفضلها - كان السجناء يشرعون في تقديم معلومات مفصلة - وحتى الأسماء - التي كانت تؤدي إلى إجراء توقيفات جديدة. هذه المرة وبمساعدة الشرطة، كنت أجدني منساقا إلى المشاركة أكثر فأكثر في هذه الاستنطاقات "الخشنة"، ولم يكن هناك بدٌّ من إعطاء تقارير إلى (كوكبورن) الذي بدا جد مستاء لذلك.

وسأل العقيد وهو مُحرج بعض الشيء:

- هل أنت متأكد من أنه لا توجد وسائل أخرى من أجل اعتراف أولئك الناس.. وسائل أكثر..؟

- أكثر سرعة؟

- لا، ليس هذا ما كنت أودّ قوله.

– أعرف حضرة العقيد، كنت تريد أن تقول: "أكثر نظافة"، أنت تعتقد أنّ هذا لا يتماشى مع تقاليدنا الإنسانية.

– حقيقة، أنا أعتقد ذلك.

– وإن كنت أشاطرك الرأي، حضرة العقيد، إلاّ أنّ إنجاز المهمة التي كلفتني بها يحتّم عليّ أن لا أفكّر من منطلقات خُلُقية وإنّما من منطلقات نفعية. إن الدماء تُهرق في كل يوم، إنها وإن كانت اليوم تُهرق في الضواحي فقط، لكنها يُمكن أن تُسفك غدا في البيت المجاور.

– وماذا تفعل بسجنائك بعد ذلك؟

– تقصد بعد اعترافهم؟

– أجل.

– إذا كانت لهم علاقات مع الجرائم الإرهابية، فسوف أقوم بقتلهم.

– ولكن، ألاّ تعتقد أنّ جبهة التحرير الوطني بأكملها لها علاقة مع الإرهاب؟

– نحن متفقان إذن.

– أليس من الأفضل أن يُسلَّموا إلى العدالة بدل القضاء عليهم؟ لا يمكن أن نقتل كل أعضاء منظمة ما، إن هذا جنون!

– ولكنّ هذا هو ما قررته السلطات العليا للدولة حضرة العقيد، إنّ العدالة لا تريد أن تنشغل بملف جبهة التحرير الوطني، فهم سوف يصبحون أكثر من اللازم ولا يمكننا أن نعرف أين سنضعهم، ثم إن العدالة لا تستطيع إعدام مئات الأشخاص. إنّ العدالة تسير وفق نظام جُعل في أوقات السلم، ونحن الآن هنا في الجزائر، وسط الحرب.

وأضفت قائلا:

– كنت تريد ضابط استعلامات.. إنّه الآن أمامك حضرة العقيد. وبما أنك لم تعطني تعليمات، فإني اضطررت إلى التصرف بمفردي، غير أن هناك شيء واضح:

إنّ مهمتنا تفرض علينا الوصول إلى نتائج يكون التعذيب غالبا جسرا مؤديا إليهـــا، بل وحتى القتل، وأظن أن كل هذا ليس سوى البداية فقط.

وعقّب العقيد:

- إنّها حرب قذرة، وأنا لا أحب ذلك.

واحتقن وجه العقيد. لقد كان يعلم أنني كنت محقا، وفهمت بأنه لـــن يبقـــى طويلا في الجزائر.

وبسرعة كبيرة، كنت على اتصال بالمكتب الثاني بقسنطينة، وهو مكتب يقوده العقيد (ديكومب). لقد طلب مني أن أجمع معلومات لها علاقة بالاصطدام الـــذي وقع بين "الحزب الشيوعي الجزائري" وبين "جبهة التحرير الوطني"، وكانت جبهة التحرير تملك جماعات منظمة تحمل اسم "جيش التحرير الوطني"، غير أنّــه كـــان ينقصها السلاح، وكان هدفها الأول هو الحصول عليه.

وتأكدت من ذلك عن طريق أحد الأعمال البطولية الـــتي نـــسي المؤرخـــون ذكرها، غير أن التاريخ لن ينساها أبدا.

في أحد الأيام، قامت جماعة من المتمردين باقتحام بيت يقع بإحـــدى الغابـــات حارسه عريف غابي يحمل اسم (بوقرة لخضر). لقد كان يملك بندقية صيد، وحينما طلب قائد المجموعة التابعة لجبهة التحرير منه إعطاءه إياها، رفض (بوقرة) قائلا:

- إنّ بندقيتي ملك لفرنسا، فإذا أردت الحصول عليها تعال وخذها.

وأطلق النار ليُردي قائد تلك المجموعة قتيلا.

وأُلقي القبض على (بوقرة لخضر) وأعدم في الحين، وفي حدود علمي لا يوجـــد هذا الاسم مكتوبا على أي مشهد أو نصب تذكاري. هذه الواقعة وصـــلتني عـــن طريق أحد الشهود العيان بفضل شبكتي التي أنشأتها، وكانـــت الـــشهادة تـــنص بوضوح على أن كثيرا من المسلمين كانوا مستعدين للتضحية من أجل ما كـــانوا يعتقدون بأنه وطنهم (فرنسا).

أوضح لي المحافظ (بورج) أنّ أعداءنا الألدّاء هم أربعة وطنيين كانوا قد تمكنوا من الفرار من سجن عنابة سنة 1952، ليتحولوا بعد ذلك إلى إطارات سامية في جبهة التحرير.

وكان (زيغود يوسف) من بينهم، وهو أحد الحدادين بمنطقة (كوندي – سمندو)، والذي صار على الرغم من سنواته الـ 34 فقط زعيما لجبهة التحرير الوطني في الشمال القسنطيني بعد موت (ديدوش مراد)، وكان قد قُضي عليه مع جماعة حوصرت وأوقفت من طرف رجال العقيد (دوكورنو)، وكان هناك أيضا شاب له 23 سنة كنا نملك صورته، لقد كان يشبه الممثل (آلان دولون)[9]، وكان يُدعى (غرس الله مسعود). وبما أنّه لم يكن كبيرا وكان يحمل ملامح طفولية، لُقّب بـ (مسعود الصغير).

كان (مسعود) عضوا في الكشافة الإسلامية، وهذا لم يمنعه من أن يصبح بطّالا محترفا، وبعد ذلك متسكعا وقاطع طريق.

في بداية الأحداث، كان يقضي وقته بين تجارة غير شرعية تافهة وصغيرة، وبين دفع الفتيات نحو البغاء للحصول على المال، لكنه كان طموحا وقاسيا، وذا هيئة كذلك.

لقد مكّنته جبهة التحرير – مثل كثير من الذين لم يكن لهم شيء يمكن خسرانه – من تحصيل بعض الشهرة، وبفضل احتقاره الظاهر للحياة الإنسانية صار مشهورا ومعروفا.

كان مسعود في واقع الأمر شجاعا، وكنت لا أشك في أنه إذا حصلت بيننا وبينه مواجهة، فإنّه سوف يتعبنا كثيرا. وكان قد أدخل في مساره جماعة من المتطرفين الصغار.

وكانت أرضية الطيران في سكيكدة تحاذي منحدرا بجانب الأرضية ذات الثمانين مترا. وأعلمني المحافظ (بورج) بأنه من أعلى ذلك المنحدر أقام رجال

مسعود برجا للمراقبة، وكانت تلك البقعة حصينة ومنيعة، وحتى وإن قُصفت الطائرات فإنّ ذلك لم يكن ليُجديَ نفعا.

وعلم (جانو دي ميغليو)، أحد مفتشي "الشرطة القضائية"، أنّ أحد مخبريه قد تم قبوله من طرف فريق (مسعود الصغير)، لقد كان لطيفا، ولكنه مهرّب صغير ومُخف للعجلات المسروقة، ثم إن عمره تجاوز الأربعين.

لقد اعترف هذا المخبر لـ (جانو) بأنه خائف من مواجهة المظليين الفرنسيين في معركة ما، وطلب منه بأن يسجنه ليصبح بعد عامين من السجن في مأمن. وبإلحاح من (بورج) ذهبت لأرى القاضي (فوغليماتشي) الذي رفض إلقاء القبض عليه دون مبرر، لأنه لم يلتحق بجبهة التحرير الوطني طواعية، كما أنه لم يشارك في أي واحدة من العمليات المسلحة أو الإرهابية.

لم نتمكن مع (فوغليماتشي) من فعل شيء، واجتمعت مع المعني بالأمر (جانو دي ميغليو)، وقمنا بإيقافه مثلما كان يريد، ثم وجدنا له مكانا يعمل فيه كسائق، غير أنه بعد ذلك ببرهة قصيرة فقد عقله وصار يهدد أصدقاءه القدامى في جبهة التحرير، وفي خريف 1956، قاموا بذبحه.

كنت أقابل إذن كثيرا من الناس، ولم يكن مراسليَّ كلُّهم ممن يتعاملون معي بدافع من الرهبة، بل كان هناك من يخدم مصالحه الشخصية عبر تعامله معي. وقمت بإرسال كثير من أولئك المُخبرين إلى الجبال، وكانت هذه الطريقة أكثر أمنا من استغلال من كانوا في عين المكان، كما أنّ (إيصولح) من جهته تمكّن من اختراق جبهة التحرير الوطني.

وبحلول الليل، كان يغيّر ملابسه العسكرية ويذهب ليحتسي قهوة مع المتمردين، حتى إنّه تمكن حتى من إدخال أحد الضباط الفرنسيين معه. كان ذلك الضابط شديد البياض، ونجح (إيصولح) في تقديمه على أنه بربري لا يفهم اللغة العربية.

لقد كنت أقوم بأعمال ضخمة، ولحسن الحظ أنّها لم تكن في جانبها الأهم المتعلقة بالتعذيب، بل كانت مجرد محادثات مع الناس، وهي محادثات ودية غالبا.

وكنا نستعمل في علاقاتنا العامة كل ما أمكن وحتى مخزوننا من الذخيرة.

كان للجيش الفرنسي في تلك الفترة مشكلة تموين بالسلاح ذي النوعية الجيدة، ولهذا اضطر الضباط إلى اللجوء للتجار بُغية الحصول على أسلحة جيدة، غير أن الذخيرة كانت متوفرة بكثرة.

كما أننا كنا نمارس حصص تدريب في الرماية بانتظام، وكان المشرفون على مخزن الأسلحة يزودوننا بكميات كبيرة من الذخيرة أكثر مما يمكن لنا استعماله في التدريبات. ومن هذا المنطلق، كان الضباط يملكون احتياطات يزوّدون بها أصدقاءهم من أعوان الشرطة.

و لم يكن طلب الذخيرة حكرا على أعوان الشرطة فقط، بل حتى "الأقدام السوداء" كانوا يملكون السلاح وكانت تلزمهم ذخيرة.

وقال لي الرقيب الأول المشرف على المخزن، وهو من أصل كورسيكي:

– حضرة القائد، إنّ الذخيرة نادرة بالنسبة للرجال الترهاء، إنّهم يطلبونها مني غير أنّه لا يمكن لي أن ألبي طلبهم. إذا استطعت أن تقيم تمرينا في الرماية لا قيمة له، ثم تترك لي بعض الصناديق من الذخيرة، فإني أؤكد لك بأنني سأحسن استعمالها.

– ولمن سوف تعطيها؟

– إلى مواطني سكيكدة من الفرنسيين دون شك!

وبدأت الوشايات تزداد حدة، ففي البوادي كانت كثير من "الدواوير" معادية لجبهة التحرير الوطني مبدئيا. وإضافة إلى همّ العيش بسلام، كانت هناك أسباب خاصة: أحقاد وقصص نساء غالبا. ومثلما هو معلوم، كنت إذا تلقيت معلومات كان يمكن لها أن تثير أحقاد المسلمين تجاه جبهة التحرير، كنت لا أتوانى في استغلالها، كما أنه لم يكن من النادر أن يشي المتمردون أنفسهم بعضهم ببعض.

18 جوان 1955

لم تنجح جبهة التحرير - مثل ما كانت تأمله - عندما قادت حركة التمرد في شهر نوفمبر من عام 1954 في أن تُجنّد معها مختلف فئـات الـشعب بكامله. وخلافا لاعتقاد سائد بكثرة، فإنّ هذا التمرد لم يكن ذا قيمة تُذكر و لم يكن كفيلا بإقلاق أحد، بل يمكن لنا القول بأنه في ربيع عام 1955، بدأت حركة التمرد هذه تشهد استترافا كبيرا.

وهكذا غيّرت جبهة التحرير خططها جذريا، ولجأت إلى الإرهاب الذي كـان يتخذ المدنيين غرضا، سواء كانوا أوروبيين أو مسلمين اشتهر عنهم أهم "أصدقاء" فرنسا.

وكان سهلا على جبهة التحرير إخضاع الأرياف لسيطرقما، غير أها وجـدت صعوبة بالغة في التموقع وسط المدن الكبيرة، أين كان الإرهـاب في طريقـه إلى التصعيد والتطور.

وفي ربيع عام 1955، فهمت السلطة بعد ترقب دام عدة أشهر، وعززته حالة اللاستقرار السياسي، إلى أي حد تدهورت إليه الوضعية، وكان من الضروري - وبكل ثمن - تجنب حصول حرب داخل المدن.

وهكذا، قررت الحكومة الجديدة التي ترأسها (إيدغار فور) وكان يشغل منصب وزير داخليتها (بورجاس مونوري) خلفا (لفرانسو ميتيران)، و(روبرت شـومان) في العدالة، أخذ زمام المبادرة واستعمال الهجوم المضاد.

في الثالث من شهر أبريل، صادق البرلمان على قانون حالة الطوارئ، وكان هذا القانون كفيلا بتوثيق الصلة بين مصالح الشرطة ومصالح الاستعلامات العـسكرية، فقد كان طريقة لتقنين وترسيم ما كنتُ أعمله قبل ذلـك بـصفة غـير رسميـة. وأصبحت العمليات العسكرية وعمليات وحدات الشرطة تتم بالاشتراك والتنسيق.

وفي الأيام التي أتبعت تلك المصادقة، فُرضت حالة الطوارئ في المناطق التي نالها ضرر كبير من طرف جبهة التحرير الوطني، وكان هناك تخوف من تدهور الحالة أكثر في شهر رمضان الذي صادف في تلك السنة شهر ماي، وهكذا كانت هناك تصعيدات عدوانية واضحة طوال هذه المدة.

وعلى إثر ذلك، قُرر في اجتماع للوزراء - منتصف ماي- بتدعيم الوسائل العسكرية، وذلك برفع القوات الفرنسية إلى الجزائر من 60 ألفا إلى 100 ألف عسكري، وكانت هناك تعليمات صارمة قد أُعطيت من أجل سحق التمرد، وحتى عن طريق القصف الجوي الذي كان إلى غاية ذلك الوقت أمرا يلقى اعتراضا.

وفي نفس الوقت، قررت باريس سرِّيا القضاء على زعماء جبهة التحرير الوطني بكل الطرق والوسائل، بما فيها اللجوء إلى المصالح الخاصة.

في نفس الأثناء، عين العقيد (كوكبورن) ملحقا عسكريا بروما، وكان ذلك أفضل. وأعتقد أنه أحسّ بمدى التجاوزات التي كنا سنضطر إليها، ولم يكن يريد المشاركة في أعمال كهذه.

وهكذا صار مُعينه العقيد (جورج ماير) خليفة له.

كان العقيد (جورج ماير) أشقر وقوي البنية، وكان يلقب بـ (بروسبير) بسبب كثرة مغامراته النسائية، ولم تكن (سيمون) - وهي زوجة جميلة تنحدر من عائلة فرنسية تقطن في المغرب - تغضب من هذا اللقب، وإذا كان زوجها يُلقّب بـ (بروسبير)، فإنها حتما ستكون (مونات).

يُعتبر (ماير) واحدا من أقدم المظليين في الجيش الفرنسي، وهذا ما كان يزيده تألقا وهيبة في أعين الآخرين.

وعند تخرجه من المدرسة العسكرية (سان سير) قبل الحرب، قرر التحول إلى وحدة من وحدتي الجو الموجودتين آنذاك، وكانت هناك وحدات جديدة ولكنها لم تر النور حتى سنة 1937، وهي وحدات تمركزت في (حملة تحرير فرنسا) في منطقتي (الألزاس) و(فوج). وبعد ذلك توجّه (ماير) إلى الهند الصينية.

كان يخامرني إحساس بأن العقيد (مايير) سيكون أكثر غضا للطرف من سابقه فيما يتعلق بالوسائل المستعملة للتغلب على جبهة التحرير الجزائرية.

وفي 18جوان 1955، حدثت مجموعة اعتداءات إرهابية في سكيكدة. وأحسست – حينها – أن الاعتداءات كانت بمثابة إهانة واستفزاز لشخصي.

لقد كنت أنتمي إلى المصالح الخاصة لـ (فرنسا الحرة) التي كانت تحت القيادة السامية لـ "العظيم" (شارل ديغول)، ومن هذا المنطلق كانت اعتداءات من هذا النوع في يوم كالثامن عشر جوان ضربة مؤلمة[10]. وعلى الرغم من أني أصبحت ضابط استعلامات، غير أنه لم يكن هناك شيء لديّ يسمح بتوقع اضطرابات وحوادث كهذه. وبالنسبة لضابط استعلامات، فإن شيئا "غير متوقع" يُعدُّ مخزيا ومهينا في وقت واحد.

انفجرت سبعة قنابل في أماكن مختلفة من المدينة، وفي نفس الساعة، وقامت بعض الجماعات بالتعدي على مارة أوروبيين بإطلاق الرصاص وباستعمال السلاح الأبيض وحتى العصي. وأُحرقت بعض السيارات وهُشّمت واجهات المحلات، ولكن وحدات الشرطة والجيش تمكّنت عن طريق اشتباكات خطيرة أحيانا من أخذ زمام الأمور.

كان أحد "الأقدام السوداء" يتجول في الشارع فإذا به يُهاجَم من طرف أحد المسلمين. لقد كانا يتعارفان من قبل. ورغم ذلك، فإن ذلك المسلم حطم رأسه بضربات فأسه.

وتمكّن قائد الأمن الحضري (ألكسندر فيليبرتي) من إدراك المصاب الذي استطاع التلفظ باسم الشخص الذي اعتدى عليه. وعندما وصلتني المعلومة، قمت

---

[10] يصادف يوم الثامن عشر جوان ذكرى توجه الزعيم الفرنسي (شارل ديغول) من لندن بخطاب إذاعي يحثّ فيه الشعب الفرنسي على مواصلة المقاومة ضد الألمان، وذلك ردا على (بيتان) الذي طلب الهدنة مع الألمان والعمل على التعايش معا يوما قبل ذلك، أي في 17 جوان 1940.

مباشرة بعدها باعتقال المسلم واستنطاقه. كنت أودُّ معرفة ما إذا كانت هذه العمليات مُتبنّاة من طرف منظمة مّا، وإذا كان الأمر كذلك فمن هم أعضاؤها.

لقد كان ضروريا أن يتكلم المتهم لأن ذلك التصعيد الأمني كان مذهلا للغاية، ثم إن حوادث مثل هذه كان يمكن لها أن تقع في كل وقت، والله وحده يعلم أين.

وفي اليوم الموالي انفجرت بضع قنابل، وكان الشنيع في الأمر كله هو أن أهداف القنابل كانت مدنية، وسعيتُ لمعرفة من كان وراء إعطاء أوامر مثل هذه.

امتنع المتهم عن الكلام، غير أني كنت مضطرا لاستعمال وسائل أكثر قوة، وقمت بتدبير أمري دون رجال الشرطة.

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي عذبت فيها أحدا، ولم يكن ذلك مجديا للأسف لأن الرجل مات دون أن ينبس ببنت شفة.

لم أفكر في شيء حينها، ولم أحزن لموته. وإذا كان هناك شيء حزنت عليه ولابد، فإنه امتناعه عن الكلام قبل موته. لقد استعمل هذا الشخص العنف ضد شخص لم يكن عدوّه.. شخصٌ خطؤه الوحيد هو تواجده في ذلك المكان. ولو كانت الضحية مسؤولا أو عسكريا لكنت تفهمت ذلك، أما أن يكون أحد سكان سكيكدة الذين يعرفهم الجاني معرفة شخصية، فهذا أمر لا يُحتمل.

لقد كان الوضع طارئا، وكان بين يديّ رجل متورط بصفة مباشرة في عملية إرهابية، ولهذا فإن كل الوسائل كانت صالحة من أجل الحصول على اعترافات منه. وكانت الظروف هي التي تريد ذلك.

بعد موت ذلك السجين، طلبت من مخبريّ بإعلامي بما يحدث في سكيكدة وهل تشكّلت جماعة مسلحة فيها؟

وهكذا علمت بأن الزعماء الحقيقيين كانوا يختبئون في الجبال. بين الصخور والأحراش وداخل المغارات، وهي أماكن تستعصي على الطائرات. وحتى القنابل والمدافع والأسلحة الثقيلة عاجزة عن كشف أمكنة تواجدهم.

ولما استلم الجنرال (لوريُّو)، في بداية شهر جويلية 1955، قيادة القوات الفرنسية في الجزائر، كانت المناطق الوهرانية هادئة، وكادت الاعتداءات تتوقف في الجزائر العاصمة، وصارت جبهة التحرير لا تُظهر نفسها سوى بعمليات قليلة منظمة، ولكن مناطق الأوراس وقسنطينة بقيت - على العموم - مستعصية.

وبما أن جبهة التحرير كانت هناك أحسن تموقعا وتمركزا، فإنها فرضت نظاما من الخوف والإرهاب كان موجّها بالأساس لدفع السلطات الفرنسية نحو القمع، ومن ثَمَّ النجاح في كسب تأييد الجماهير المترقبة لقضية التحرير هذه.

وفي نحو 20 من شهر يوليو، تيقّنتُ من أنه يوجد تمركز كبير للمتمردين في المناطق التي كانت غير ممكنة الاختراق حول مدينة سكيكدة.

لقد كان هناك ما بين ثلاثة وخمسة آلاف رجل، "فلاقة" ومدنيين مختلطين. بعضهم قدم من المناطق المحاذية لسكيكدة، وبعضهم الآخر من مناطق مجاورة، وتمكنتُ في نفس الوقت من تفعيل شبكتي الخاصة، وقمت بإجراء تقطيعات وتقسيمات للمناطق.. وكان ذلك عملا مُملا.

وفقا لمنطق سليم، فإنه يجب على المتمردين أن يقتاتوا ويطعموا، غير أنهم كانوا معزولين و لم يكن لديهم من يقوم بإرسال الأكل لهم عن طريق الطائرات، كما أنهم لم تكن لهم إمدادات تزوّدهم بالغذاء، ولهذا كان عليهم أن يجدوا الطعام في مدينة سكيكدة نفسها.

قمتُ - بمساعدة الأمن الحضري - بجولة حول كل البقّالات الموجودة بالمدينة.

كان هناك بقال من منطقة "بني مزاب" بغرداية يدعى (محمد)، وكان إلى وقت قريب يبيع ما معدله كيس دقيق واحد في كل ثلاثة أيام، ولكنه تمكّن - فجأة - من بيع خمسين كيسا مرة واحدة، وكان هذا أمرا غريبا. كما قدم رجل إلى الصيدلية وقام بشراء عشرات العلب من الضمادات.

إن التحريات التي قمت بها أوصلتني إلى نتيجة مفادها أنه في يوم 20 أغسطس 1955 وفي منتصف النهار بالضبط، سوف تشن جبهة التحرير الجزائرية هجوما قويا وشاملا يقوم به آلاف الرجال ضد مدينة سكيكدة.

لقد قرر (زيغود يوسف)، قائد منطقة الشمال القسنطيني، القيام بعملية استعراضية ودموية بمناسبة مرور العام الثاني على خلع الملك محمد الخامس سلطان المغرب. وفي نفس الوقت، كان يريد دعم الاقتراح الذي قُدم للأمم المتحدة من طرف سبع بلدان إفريقية وأسياوية من بينها الهند، من أجل استقلال الجزائر.

هذا الهجوم كان سيتم عن طريق عمليات (الكومندو)، حيث يتموقع المقاتلون في أقبية داخل المدينة أياما قبل الهجوم، وكانت فكرة القيادة العليا لجبهة التحرير هي أخذ بلدة متوسطة كرهينة.

وعلمتُ بعد ذلك أنه في نفس الساعة وفي نفس اليوم، سيقوم المتمردون بالاستحواذ على مدينة مغربية، حيث وقع اختيارهم على (واد زم). وكان ذلك كله يهدف إلى إعلام العالم بأسره بأن الحركات الوطنية في المغرب الكبير تتضامن وتساند بعضها البعض، وأنه بمقدرتهم القيام بعمليات مشتركة في مناطق مختلفة.

في الجزائر مثلا، لم يكن للمتمردين وسائل تمكّنهم من الاستحواذ على مدينة كبيرة، ومن باب أولى القيام بهجوم شامل، وهكذا كان التعرُّض لمدينة سكيكدة إذن حلا جميلا. إن المدينة تحوي ميناء يشهد حيوية كبيرة، ولم تكن العملية لتتم دون أن يعبأ أحد بذلك.

وكنت على علم بهذه العملية الكبيرة قبل تنفيذها بشهر، بالمكان والتاريخ والساعة والخطة المرسومة.

وكان يجب علينا عدم التحرُّك، وانتظار العدو بأقدام ثابتة وراسخة.

الهجوم

قمت بإعلام العقيد (مايير) ثم توجهت بعد ذلك إلى قسنطينة لإبلاغ الملازم العقيد (ديكومب) من المكتب الثاني، وقلت له:

- إنه شيء واضح حضرة العقيد، سوف نتعرض لهجوم يوم 20 أغسطس بسكيكدة.

- هل سمعت عن احتمال القيام بعملية مماثلة بقسنطينة؟

- لم يخبرني أحد عن ذلك، لقد حُدّثت عن مدينة سكيكدة فقط، أما باقي المناطق فلا أعلم عنها شيئا.

- وهل سمعت بشيء مماثل يمكن حدوثه بالعاصمة؟

- لم يحدث هناك شيء - على الأقل - في الظرف الراهن، إن جبهة التحرير غير مستعدة لقيادة هجوم كامل وشامل.

ورجعت إلى سكيكدة لكي أقوم بتحرير تقرير أسلمّه للعقيد (مايير) الذي قال لي بعد الاطّلاع عليه:

- إن تقريرك جميل، غير أنه يجب الآن توقيعه وإرساله.

- إذن، وقّعه ثم أرسله حضرة العقيد.

ولكن العقيد تردّد ثم قال:

- كيف سيكون موقفي يا تُرى إذا لم يحدث شيء يوم 20 أغسطس كما تزعم؟ ثم هل تعتقد أني يمكن أن أقوم بمجازفة مثل هذه؟

غير أني لم أتمالك نفسي وصرخت - فجأة - غاضبا:

- ولكن حضرة العقيد، بما أنني أقول لك بأنه سوف يحدث شيء ذلك اليوم فإنه حتما سيحدث، وقّعه إذن.

أثناء انفعالي، استعملت العبارة المحببة للـ "العظيم" (ديغول)، ولعل هذا هو الذي أقنع (بروسبير)، وقام بتوقيع التقرير دون أن ينبس ببنت شفة.

وفي يوم الخميس 18 أغسطس، أُعلمت بأن وحدات كومندو جبهة التحرير بدأت تموقعها في أقبية داخل المدينة، ولم أكن لأتعرض لهم لأن هذا كان يُظهر أننا كنا على علم بما سوف يحدث، غير أن احتمال فكرة أن مئات الرجال المستعدين للقتل كانوا على مقربة منا لمدة يومين كان يثقل الكاهل، إضافة إلى أننا لم نكن نملك العدد الكافي من الرجال الذين يمكنهم القيام بالمواجهة. وفي الغد، قمت بإجراء إحصاء شامل للقوات التي تقع تحت أيدينا:

كان هناك كتيبتنا الأولى التي قدمت من عمليات ميدانية، إضافة إلى بعض المتربصين من مدرسة القفز الذين يمكنهم مدُّ يد العون، غير أن العدد الإجمالي لقواتنا بلغ 400 رجل من الوزن الثقيل، وبقي العدد جد قليل، فليس من العدل أن نضع 400 رجل قبالة بضعة آلاف.

قام العقيد (بروسبير) بتزويدي بمعين، وهو الملازم الأول (سوتيرا)، وكان أحد المتخرجين من المدرسة العسكرية (سان سير)، لقد كان ضابط اتصالات غير أنه كان يمقت ذلك ولا يخفي تذمره من طبيعة عمله. وكان أبوه أحد الضباط الذين قضى عليهم الجيش الألماني أثناء معارك (حملة تحرير فرنسا).

وقام العقيد بتجميع ضباطه في يوم 19 أغسطس، وعلمت بأنه لم يصدّق كلمة واحدة مما ذكرته في توقعاتي، غير أنه لم يُرد خذلاني.

وشرع في قراءة التقرير الذي حررته، ثم توجه إليّ قائلا:

- يجب عليَّ أن أقوم صباح غد السبت بتسليم شهادات نهاية التكوين في مدرسة القفز، وبعد ذلك هناك اجتماع مبرمج في نادي المنظّمين. هل يجب عليَّ - حسب رأيك - حضوره أم لا يجب؟

وأجبته:

- يمكن لك أن تحضره حضرة العقيد. إني أرى أنه من الأفضل أن لا تُغيِّر شيئا من برنامجك حتى لا تُثير انتباههم.

- وماذا تقترح عليّ؟

- لا يوجد ثمّة شيء خاص، غير أنه على الجميع أن يأخذوا أماكنهم قبل خمس دقائق من منتصف النهار، وأصابعهم مشدودة على الزناد.

- حسنا أيها السادة، أبلغوا هذه التعليمات، وإذا حصل الهجوم مثل ما هو متوقع في منتصف النهار، أطلقوا الرصاص دون شح بالذخيرة، أطلقوا الرصاص بالمدافع الرشاشة، أما أنا، فسأطلب إمدادات، وإذا توقفت الهجومات المواجهة، توجهوا إلى وحدات الكومندو الموجودين في الأقبية، ولا ترحموا أحدا.

وفي يوم السبت 20 أغسطس 1955، قررت الذهاب إلى القفز من أجل أن أخفف بعض الضغط عليَّ، وكان يجب أن أفعل ذلك مبكرا لأن الريح كانت ستهب مع شروق الشمس إلى جهة البحر، في حين كان ميدان القفز على اليابسة.

استيقظت يومها على الساعة الثالثة صباحا، وبعد القفز رجعت مع شروق الشمس إلى مقر الكتيبة.

وفي المقابل،كانت هناك حانة يديرها صهر رئيس بلدية سكيكدة.

وعلى الساعة الثانية، قطعت الطريق بهدوء من أجل تناول فطور الصباح مع قهوة قوية، بيض مقلي وبعض النبيذ، وكنت على علم بأن رجال الكومندو الذين كانوا يشاهدونني من الأقبية يموتون رغبة في إطلاق النار عليَّ.

وارتفعت درجة الحرارة إلى حد لا يمكن احتماله.

ومر بي أحد محافظي الشرطة وقال:

- هل أنت مستعد حضرة النقيب؟

- أنا أقوم في هذه اللحظة، مثلما ترى، بتناول فطوري الصباحي، لا يمكن القتال جيدا ببطن فارغ!

وأخبرني أحد سواق سيارات الأجرة أن سيارته حُجزت من طرف جبهة التحرير.

ودخل شخص آخر إلى الحانة، وأخبر بأنه لم يجد سيارة أجرة واحدة في المحطة.

كان العقيد (ماير) منسجما لدرجة كبيرة مع (بول ديكورنو)، أحد المتخرجين من مدرسة (سان سير)، أين كان يقود الوحدة الثامنة عشر للمظليين لـ (سان شارل)، وأخبره (ديكورنو) بأنه لم يكن ثمّة شيء خاص في مقاطعته، وإذا حدث

الهجوم فإنه وعد بأنه سيهرع لمساعدتنا دون توان، وذلك أن وحدته الثانية كانت متموقعة 6 كيلومترات جنوب سكيكدة.

كانت جبهة التحرير تقوم بالتصنت على أجهزة الإرسال اللاسلكي والهاتف، وتم اعتماد إشارة خاصة لإخبار القائد توماس الذي كان يقود تلك الوحدة الثانية.

وكان (ديكورنو) يطمئن العقيد (مايير) قائلا:

- (جورج)، إذا ظهر "الفلاقة" فما عليك سوى أن تجعل الهاتف يرن وسوف يرد توماس بالرشاشات ليلقّنهم درسا لن ينسوه.

كانت الساعة قرابة منتصف النهار عندما قمت بإعطاء التعليمات الأخيرة لرجالي، وفجأة دخل محافظ الشرطة (فيليبرتي) رفقة حارسيه قائلا:

- حضرة النقيب، يجب أن تُعيرني رجالك وسيارتك.

- ولماذا؟

- عندي حارسان يتأهبان لإجراء إيقاف في "الحي الروماني".

كان الحي الروماني على بعد كيلومترين جنوب سكيكدة، قرابة المكان الذي تقيم فيه الكتيبة الثانية للوحدة الثامنة عشر للمظليين، وأجبته على الفور:

- آسف حضرة المحافظ، ولكن هذا غير ممكن.

- ولم؟

- تسألني لماذا.. في حين أن "الفلاقة" سيكتسحون المدينة في أقل من ساعة!

- ولكن لن يستغرق هذا العمل ساعة كاملة، إني أؤكد لك ذلك.

- اسمع، ليس هذا وقتا مناسبا لذهابك هناك، ولكي تُقتل فوق ذلك.

- لن يستغرق هذا أكثر من دقيقتين، لا يمكن لك أن ترفض لي طلبا كهذا.

وقمت بإحضار (إيصولح) و(ميزيري)، ثم قلت لهما:

- رافقا هؤلاء إلى الحي الروماني، أوقفوا الأشخاص وعودوا بكل سرعة ولا تتعرضوا لاشتباكات أبدا.

وبعد نصف ساعة من ذلك، رجع (فيليبرتي) وعلامات الذل بادية عليه، وأردف قائلا:

- خبر سيء، اتصل بي أعوان الأمن المتواجدون بجنوب سكيكدة وأخبرونا بأن رجالنا اصطدموا بأكثر من 500 من "الفلاقة".

- تبا، كنت على يقين أن الذهاب إلى هناك كان مجرد حماقة، لن نبعث لهم مددا.

- وماذا سنفعل؟

- أنت الذي ورّطتهم، فتحمل مسؤولياتك وحدك.

وركض (فيليبرتي) إلى سيارته وأخرج الرشاش الذي أحضره من المكتب ولم يعد يفارقه، ثم قال:

- سوف أذهب إليهم.

وقلت معقّبا عليه:

- إن الأمور تسير من حسن إلى أحسن، فقدنا أربعة من رجالنا وإذا أضفنا لهم محافظ شرطة، فإن هذا اليوم قد استهل بخير!

ورغم ذلك ذهب المحافظ (فيليبرتي)، وعند وصوله رفقة رجاله إلى الحي الروماني، رأوا (إيصولح) و(ميزيري) والاثنان الآخران وهم يدافعون عن أنفسهم بقوة مذهلة ضد مجموعة من "الفلاقة" الذين ترافقهم نسوة تطلق الأعنة لزغاريدها، وحينها أخرج (فيليبرتي) رشاشه وبدأ في التصويب على الجميع.

وعلى بعد مئة متر، كانت هناك شاحنة متوقفة وتصدر رائحة قوية للبترول، لقد كانت الشاحنة تنقل قنابل (المولوتوف) الموجّهة للهجوم على سكيكدة.

واستغل (إيصولح) فرصة وصول المحافظ ورجاله ليتقدم ويرمي رمانة نحو الشاحنة حتى انفجرت، وتمكن هو وبقية الرجال من الانسحاب، وعند رجوعهم كانت الساعة تشير إلى حوالي الحادية عشر والنصف.

وقال لي (بروسبير):

- ومتى سيبدأ ذلك الهجوم؟

- لقد بدأ حضرة العقيد، وأظن أن الوقت قد حان لمناداة الوحدة 18 وإلا فسوف يذيقوننا العلقم.

وأُخطرت كتيبة (توماس) بالتوجه إلى الحي الروماني.

كان المتمردون قد ضيعوا بعض الوقت بسبب ذلك الاشتباك الطارئ، وكان في صفوفهم موتى واضطروا إلى نقل الجرحى أيضا.

لم يكن لكتيبة (توماس) غير قطع أربعة كيلومترات لملاقاة المتمردين، و لم تكن مسافة أربعة كيلومترات مشيا على الأقدام شيئا يُذكر بالنسبة لجنود مدربين بصفة جيدة.

ووصلت الكتيبة وشرعت في إطلاق النار صوبهم دون تمييز، و لم تؤثر فيهم الزغاريد المنطلقة من حناجر النساء، وقُتل كل من كان في الواجهة، ولسوء الحظ كان من بين القتلى نساء وأطفال كانوا رفقة المتمردين.

وفي منتصف النهار، في وسط مدينة سكيكدة، أخذت الطلقات النارية تُسمع من كل صوب، وكان المتمردون - وهم من البدويين الذين لم يكونوا مسلحين كما ينبغي - مؤطّرين من طرف رجال من جبهة التحرير أكثر وأحسن تسلحا.

لقد كان شيئا مذهلا، وذلك أنهم كانوا يتقدمون بنظام وكأنهم في عرض عسكري، لقد كانت سكيكدة تحوي أكثر من 20.000 نسمة، وحتى ولو كان الكثير منهم على شواطئ البحر، كان يمكن للأمور أن تتجه نحو الأسوأ.

وفي نفس الوقت، خرجت وحدات الكومندو التي كانت متواجدة في الأقبية يومين أو ثلاثة أيام قبل الهجوم وشرعت في أداء مهامها، غير أن الكتيبة الفرنسية ردت عليهم بسرعة.

وتعرّض المقر الذي كنت متواجدا به إلى طلقات للرشاش، وكان ذلك بواسطة أشخاص خرجوا من أحد الفنادق المقابلة، قبالة المكان الذي كنت أعتاده وقاموا بالهجوم وهم يصيحون[11].

---

[11] واضح أن المؤلف يشير هنا إلى صيحات "الله أكبر" التي كان يُطلقها المجاهدون، وهذا التكبير كان الواجهة الحقيقية التي تعبّر عن كيان المجتمع الجزائري، قبل عمليات (العبث) التي طالت مقومات الوجود كله، ومن بينها تاريخ "الجهاد الجزائري" الذي تحول بعصا سحرية إلى اسم "ثورة"، مثلما تحول اسم "المجاهد" إلى "جندي"، ومثلما حاول البعض كذلك دوس بيان نوفمبر والقفز عليه صوب أرضيات ولوائح أخرى ليست

وسئمت بسرعة من هذه الجلبة والضوضاء، فخرجت رفقة بعض رجالي، وفوجئ
ـهاجمون برؤيتنا، ولجأوا إلى الانسحاب من أين أتوا تحت رصاص رشاشاتنا، غـــير
ـهم لم يتوقفوا عن إطلاق النار.

وقمنا باجتياز الطريق بسرعة تحت صوت الرصاص الذي كان يصفر في آذاننـــا،
ـقد كنا وسط طلقات النار المتقاطعة القادمة من الواجهة ومن الطرقات، وبدأ الأمـــر
يتحول إلى جحيم.

كان للمقهى مدخل رئيسي وآخر في الخلف، وطلبت من (ميزيري) بأن يتـــبعني
ـحاول مباغتتهم بالرمانات من الباب الخلفي، ولكن الباب كـــان مغلقـــا، وقـــام
ميزيري) بإطلاق النار عليه، ومن ارتداد الشظايا، بدا واضحا أن الباب كان سميكا،
غير أن بعض الرصاصات تمكنت من اختراقه لأننا سمعنا صراخا بالداخل.

ورجعنا إلى جهة المدخل الرئيسي للمقهى، حيث كان الرصـــاص في اســـتقبالنا.
وبعدما رمينا بعض الرمانات قمت باقتحام قاعة المقهى التي أمطرناها بوابل رشاشاتنا،
ـ أر من قبل مثل هذا العدد من زجاجات الخمر تذهب هباء، ولا أتكلم على مالكها
ـذي لم يكن في صالحه بقاؤه هناك.

وهكذا، تراجع أولئك الرجال إلى القبو، غير أنهم لم يغلقوه بل أكملوا إطلاق النار
من الباب المفتوح، لقد كانوا مصممين على الثبات.

لم نتمكن من الدنو منهم، ولم يكن القضاء عليهم ممكنا دون خـــسائر كـــبيرة،
وطلبت من رجالي التخلي عن البطولات الزائفة وأن يكملوا إطلاق النار من أجل شد
ـتباه المتمردين إليهم.

وفي ذلك الوقت، اقتربت رفقة (ميزيري) وقمنا بإلقاء رمانتين، وعند انفجارهمـــا
تحول المكان إلى لهيب ونار.

مصلحة الجزائر وشعبها هدفها الأول.. لقد كانت معركة المصطلحات حربا أخرى، ولا تزال، وقـــد تكـــون
ـأهم في محاولة بناء الضمير الجمعي والباطن الشعوري لكيان الأمم والمجتمعات.

لحظات بعد ذلك، توقف إطلاق الرصاص القادم من أسفل، غير أن القبو كان كبيرا وكنت أعلم أن الكومندو كان لا يزال هناك ولن يطول المكث حتى يخرج، وهن كلا الجانبين، حبسنا أنفاسنا وقمنا بتجديد ذخيرتنا، وفجأة خرج بضعة وعشرون رجلا من القبو المليء بالدخان، وقمنا باستقبالهم برشاشاتنا و لم ينج منهم أحد.

كانت المعارك ضارية خارج المقهى، ومررنا بمقر الحزب الشيوعي وكان مناضلوه قد غادروه حذرين ليتركوا المكان لبضعة وخمسين رجلا من رجال جبهة التحرير الذين قضوا الليلة فيه، و لم يعد دليل المواجهة الذي طلبه مني الملازم العقيد (ديكومب) من المكتب الثاني بقسنطينة ضروريا، فلقد كان الأمر واضحا للعيان.

وفي الطريق الممتد إلى الكتيبة، كان المتمردون يواصلون تقدمهم وعلى وجوههم مسحة من الخبل والبلادة، وقمت بإحضار جندي من أجل مساعدتي قصد إيقافهم، وبدأ ذلك الجندي بإطلاق النار على أولئك الرجال الذين كانوا ينهارون واحدا بعد الآخر.

لقد كان تصرفهم غير معقول، فكلما سقط أحد "الفلاقة" واصل رفاقه طريقهم دون أدنى اهتمام به، وبدل أن يسعوا لحماية أنفسهم أو اللياذ بالفرار، كان يبدو عليهم أهم لا يهمهم كل ما كان يجري. وفي الشوارع المتاخمة تم استقبالهم بالرشاشات، ورغم ذلك لم يتقهقر أحد منهم، ولهذا السبب كانت حصيلة خسائرهم ثقيلة.

وأرسل نائب المحافظ (ديبيش) من شدة هلعه رسالة إلى الجزائر العاصمة يقول فيها إن سكيكدة قد سقطت في يد جبهة التحرير، وبأن كل شيء قد انتهى، ثم توجه للاختباء في قبو بيته، غير أنه في يوم سبت في الجزائر العاصمة، كان الجميع في شواطئ البحر، وكانوا يسخرون من رسالة (ديبيش) مثلما سخروا من قبل من التقرير الذي أرسله العقيد (مايير) شهرا قبل ذلك، و لم يأخذ أحد التهديدات التي كانت تخيم فوقنا مأخذ الجد، وكنتُ على دراية بهذا عن طريق قريبي الذي كان يقطن هناك، والذي

كنت أراه أحيانا، بل إن أصدقاءه كانوا يقولون بأن ما يسمى "جبهة التحرير الوطني" شيء لا وجود له أصلا!

ترك المتمردون وراءهم 134 قتيلا في طرقات المدينة، وكذا مئات الجرحى الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء أخذهم، ولهذا اضطررنا لتقديم الإسعافات لهم، وقُتل ضابط صف ممّرض عندما ذهب ليبحث عن أحد "الفلاقة" الجرحى، كما أن أحد قواد الوحدات عندنا تعرض لطلقات رصاص قادمة من أحد الأقبية، وذلك أنه عوض أن يضرم النار في البيت أو أن يقضي على المهاجمين بالقنابل، فضّل التعامل بطريقة قانونية، وهذا ما جعله يرجع إلى فرنسا داخل تابوت.

حادثتان لإثبات حسن النية كلفتانا قتيلين، كما أنه كان هناك مئات الجرحى، وقمنا بالتقاط أحد القواد الصغار لجبهة التحرير وهو في حالة خطيرة قرب محافظة الشرطة التي حاول الهجوم عليها.

لقد كانت فكرته فكرة سيئة، لأنه استُقبل من طرف (فيليبرتي) الذي لا يفارق رشاشه (من نوع 24 - 29)، وكان كل رفاقه قد قتلوا، أما هو فلقد جُرح لسوء حظه من طرف (فيليبرتي)، وكان المحافظ غير مستعجل لإرسال الجريح إلى المستشفى، وفضّل استنطاقه وطلب مني مساعدة (إيصولح) الذي مثّل دور سجين ينتمي إلى جبهة التحرير، وتم زجّه تحت الضرب في زنزانة ذلك الجريح.

وقال (إيصولح) متباكيا - وكان فنانا بارعا:

- لم يكن الحظ معنا، لقد تلقينا درسا اليوم.

وأجاب الآخر:

- نعم، غير أن (زيغود يوسف) زعيم المنطقة القسنطينية قد نجا، وكذا (سي خالد).

- سي خالد؟ من هو؟

- إنه سي خالد.. المصري

وأرسل الجريح زفرة حادة دون أن يضيف شيئا آخر.

كان هناك مسؤول آخر تعرض لكسر في عظم الفخذ سببته رصاصة رشاش من نوع (12.7) وأجريت له عملية من طرف الدكتور (فانسان) جراح مستشفى سكيكدة رفقة الدكتور (بي) من العاصمة الذي قدم للمساعدة، و لم يتمكنا من تخديره، فالعقار المخدر الذي حُقن به من طرف الممرضة لم يفعل فعله، وكان لابد من مضاعفة التخدير، ورغم ذلك، بمجرد أن انتهت العملية الجراحية فتح المتمرد عينيه، واستغرب الجراحون ثم فهموا سبب ذلك، لقد كان أغلبية المهاجمين تحت تأثير تخدير "الكيف" الذي قُدم لهم ليدخنوه، وهذا ما يفسر سبب لامبالاتهم عندما كنا نطلق النار عليهم.

وفي الساعة الواحدة زوالا انتهى كل شيء، وتبعا لتعليمات زيغود يوسف، انسحب القواد الذين رأوا أن الأمور تسير نحو الأسوأ وهم يحملون أسلحة الذين ماتوا هنالك.

لقد تركوا رجالهم هناك، سالمين أو جرحى ليواجهوا مصيرهم معنا، لقد حسب زيغود يوسف ببرودة الخسائر الفادحة التي سيتعرض لها، وذلك لأن رجاله لم يكونوا جدّ مسلحين، لأن المهم في كل هذا هو تنبيه الرأي العام، وعلى قدر الدماء المراقة يكون الكلام، كثيرا أو قليلا.

لقد جعل زيغود يوسف في الواجهة رجالا كانوا تحت تخدير الحشيش. و لم يكن موتهم - بالنسبة له - أكثر من موت المدنيين الذين أمرهم بقتلهم، وحينها تيقنت أنه دون معلوماتي التي تحصلت عليها، كان يمكن أن تحدث في سكيكدة مجزرة تماثل في فظاعتها تلك التي حدثت في (الهالية).

الهالية

في حوالي الساعة الثانية زوالا، أُخبرنا أن الهجوم الذي كان مركّزا على مدينة سكيكدة قد طال قرى ومداشر أخرى في المنطقة.

وعلى بعد 22 كلم شرقا، كان هناك منجم معزول يتم فيه استخراج مادتي الكبريت والحديد، واختير هذا المنجم كهدف من طرف جبهة التحرير الوطني.

كانت "الهالية" تجمع ألف مسلم مع مئة وثلاثين أوروبيا، وكان الجميع يتلقون أجرة متساوية ويحظون بنفس الامتيازات الجماعية، وكانت هذه الوضعية بالذات هي التي لا يمكن لجبهة التحرير أن تتحمّلها. و لم يخطر ببالي قط أن يقوم المتمردون بشن هجوم عليها، ولا أن لديهم الخسة التي تخول لهم التعرض للمدنيين الأوروبيين المقيمين هنالك.

لكن (زيغود يوسف) كان قد أعطى تعليمات تقضي بقتل المدنيين الأوروبيين، وبأبشع الطرق الممكنة. ومن هذه المنطلقات والأعمال، كان يأمل من الفرنسيين - تحت وقع الدهشة والصدمة والخوف - أن يقوموا بعمليات قهر غير مسبوقة حتى يتم توحيد الشعب المسلم نهائيا ضد "الأقدام السوداء" ويقومون بتوعية الرأي العام الدولي.

ومع الحرارة الشديدة وقت الغداء، قامت مجموعتان من "الفلاقة" بهجوم مباغت وشرعت في التنكيل بكل المدنيين الموجودين هناك.

كان الأطفال متواجدين في المنازل بمنأى عن أشعة الشمس المحرقة، والنسوة كُنّ يحضّرن الغداء في طمأنينة وينتظرن عودة أزواجهن.

لقد قمتُ بتفقد المنجم أياما قبل ذلك، كما قمت بمعاينة نظام الحماية الذاتي الممتاز الذي وضعه المدير في عين المكان، وبالنظر إلى العلاقات المتميزة التي تجمع بين المواطنين الفرنسيين والمسلمين في "الهالية"، فإنه لم يكن ثمّة شيء يثير فيّ مخاوف ما.

كان العمال من "الأقدام السوداء" يضعون الثقة الكاملة في أصدقائهم من المسلمين، و لم يكونوا يتوقعون لحظة واحدة بأن الروابط الأخوية التي وحّدهم ستتعرض للتفكك والتلاشي في حالة هجوم يقوم به جزائريون عليهم.

وحتى لا يكون هناك إيماء بتسرب المعلومات حول الهجوم المبرمج ضد مدينة سكيكدة إلينا - وهذا مما كان جديرا بأن تلغي جبهة التحرير من أجله الهجوم بكامله، كما أنه كان كفيلا بفضح عملائي، مما سيجعل عملية أخرى من هذا النوع أصعب توقّعا - لم أُرد إطلاع المدير على المعلومات التي كانت بحوزتي، ووضعت كتيبة (بيهو) المتواجدة على بعد 10 كم من المخيم في طريق سكيكدة تحت حالة التأهب القصوى احتياطا، وهي كتيبة تشرف على تدريب الشبان المكلفين بالخدمة العسكرية.

كان نظام الدفاع في "الهالية" يتكّون أساسا من مخزن للبنادق والرشاشات بأعداد كافية، غير أنه وفي اليوم المحدد لم تسر الأمور كما كان ينبغي لها أن تسير، لقد ذهب صاحب مفتاح المخزن للاستحمام على شاطئ سكيكدة، وتمكّن عاملان من الأقدام السوداء من الإفلات، لقد وصلوا مولهين وأنفاسهم منقطعة إلى معسكر (بيهو) وهما يصرخان ويبكيان، كانا يتحدثان عن رجال يمارسون القتل بوحشية بشعة، وبأنهم كانوا يأخذون الرُّضَّع ويُلقون بهم على الجدران، وبأنهم كانوا يبقرون بطون النساء بعد اغتصابهن. وفي معسكر (بيهو)، لم يكن هنالك غير مائتي شاب حديث التجنيد تحت قيادة القائد (بيري) الذي عاد من (ديان بيان فو) والملازم الأول (ناكتو)، وعندما بلغ الخبر العقيد (مايير) قرّر استرجاع المنجم بسرعة، لقد كان استعمال جنود دون خبرة و لم يكملوا حتى تعليمهم العسكري، مخاطرة حقيقية، فلقد كانوا على أكثر تقدير يعرفون استبدال ذخائر الرشاشات أو حتى استيعاب الأوامر الموجهة إليهم.

غير أنهم كانوا في عين المكان، وكان (مايير) إذا لزم الأمر يتحمّل مسؤولياته بكل وعي، وهكذا أمر (بيري) بالهجوم عليهم دون خطة مثل جنود العام 2 في

فالمي)، وكانت التقنية ببساطة تقتضي أن يكونوا صفا متلاحما مع إطلاق النار عند تلقي الأمر حتى يتم تجنُّب الحوادث.

وكان كل ما يمكن لـ (مايير) فعله هو طلب يد العون من مجمّع الطيران تكتيكي في ولاية قسنطينة، لقد كانت هناك طائرتان من طراز (ت 6) أقلعتا لمساندة المائتي جندي الذين - وبدون أدنى تردد - قاموا بهجوم رائع لإنقاذ ما تبقّى من المدنيين أحياء.

لم يفقد أحد منهم أعصابه، ولم يطلقوا النار إلا بأمر قوّادهم، وحتى الطيارون لم يدّخروا جهدا، وكانت الحصيلة 80 قتيلا في صفوف "الفلاقة" و60 أسيرا.

ومع الأسف، كان الشيء الذي اقترفته تلك الأيادي ضد المدنيين الأوروبيين يفوق كل تصوُّر. لقد كانت الحصيلة 35 قتيلا و15 جريحا ومفقودين اثنين. وعندما رأيت جثث الأطفال مقطعة إربا إربا، بسبب الذبح أو السحق على الجدران، وعندما شاهدت النساء وقد بُقرت بطونهن أو مُزِّقن، نسيت - حينها - ذلك الشيء الذي يدعونه "الرحمة".

وكان الأغرب في ذلك أن الفاعلين هم جيرانهم من المسلمين الذين كانوا يعيشون معهم في انسجام إلى غاية ذلك الحادث، حيث قامت جبهة التحرير بتزويدهم بالخمر والمخدرات، وحثّتهم على سرقة منازل العمال من "الأقدام السوداء" وقاموا بإعطائهم أمثلة حية لذلك.

وفي حوالي الساعة الرابعة مساء، اتصل (ناكتو) بـ (مايير) عن طريق الهاتف وقال له:

- حضرة العقيد، إنني متواجد في المنجم.. إن هذا شيء لا يطاق!

- كم عدد الضحايا تقريبا؟

- ثلاثون أو أربعون.. حضرة العقيد، ولكن في أي حالة!

- هل لديك سجناء؟

- نعم، حوالي ستين تقريبا، ولكن ماذا أفعل بهم حضرة العقيد؟

– ما هذا السؤال الساذج! أجهز عليهم طبعا!

وبعد ربع ساعة من ذلك، سمعنا أصوات محركات، لقد كانت شاحنات من نوع GMC جاء بها (ناكتو)، وسأله العقيد (مايير) على الفور:

– ما كل هذه الشاحنات؟

– لقد قمت بإحضار السجناء حضرة العقيد، بما أنك أمرتني بإنزالهم[12].

وصدرت مني ومن (بروسبير) ضحكة عصبية لم يطلقها شيء سوى الغيظ، والتفت العقيد صوب (ناكتو) قائلا:

– هل كونك من المناطق البدوية مانع من فهم اللغة الفرنسية؟

وكان الملازم لا يريد أن ينتقص منه أحد بسبب لهجته البدوية، ولذلك غضب، لقد كانت عباراته مضحكة إلى درجة أننا في هذه المرة، أغرقنا في الضحك، مثلما يمكن أن يحدث عندما تختلط الكوميديا بالتراجيديا.

وأردف العقيد قائلا:

– هيا.. انقل بضاعتك وانصرف من هنا!

وقلت حينها للعقيد إنني سوف أتصرف، ولم يقل (مايير) شيئا، لقد كنا جد متفاهمين وكنت على علم بأنه استحسن فعلي.

قمت باختيار رجل من جملة السجناء لأقوم باستنطاقه شخصيا، لقد كان مراقب عمال مسلم، وقام لوحده باغتيال عائلة أحد عماله الفرنسيين.

وسألته:

– ولكن، لماذا قتلتهم؟ إنهم لم يفعلوا لك شيئا! كيف استطعت قتل أطفال رُضّع؟

– لقد قيل لي بأني لن أتعرض لأي خطر.

– لن تتعرض لأي خطر؟ كيف؟

---

[12] تشترك كلمة (***Descendre***) في الدلالة على الإنزال والقتل، ولهذا فهم (ناكتو) من اللفظ معنى الإنزال ولم يخطر القتل بباله.

- لقد جاءني أمس أحد ممثلي جبهة التحرير، وقال لنا إن المصريين والأمريكيين سيأتون إلى الجزائر لمساعدتنا. وقال بأنه يجب علينا قتل كل الفرنسيين، وبأننا لن نخشى شيئا، وهكذا قمت بقتل كل من صادفته أمامي.

وأجبته باللغة العربية:

- لا أعرف ما سيقوله الله في فعلتك، ولكنك سوف تلقاه الآن لتشرح له. وبما ت قتلت أبرياء، يجب أن تموت، إنها قاعدة المظليين.

وناديت (إيصولح) وقلت له:

- خذه واقتله حالا! أما الآخرون فناد (الرضيع) لكي يتكفل بهم.

- (الرضيع).. هل تعني صاحب المرأب؟

- نعم.

كان (الرضيع) جنديا في المقاومة، واختير له هذا اللقب بسبب مظهره الطفولي، شغل بعد ذلك منصب مسؤول مصلحة السيارات.

وبما أن الجميع كان يعرف طبيعة ما نقوم به، جاءني (الرضيع) أياما قبل ذلك وقال لي:

- حضرة النقيب، يجب أن أقول لك شيئا.

- تفضّل.

- أنا على دراية بما تقومون به، ولهذا أود العمل معكم.

- آسف، عندي ما يلزم من الرجال وأظن أنك تنفعنا أكثر إذا بقيت في مرأب.

فقال محبطا:

- حضرة القائد، إذا كنت في حاجة إلى مساعدتي يوما مًّا، لا تنس أنني هنا.

- حسنا، لن أنسى ذلك.

وفي يوم 20 أوت، تذكّرتُ اقتراحه فاستدعيته وقلت له:

- إذا لم تَخُنّي الذاكرة، فقد أخبرتني بأنك على علم بما أفعله، وبأنك تريد العمل معي أيضا، أليس كذلك؟

- بلى، حضرة القائد.

- إذن لقد قبلتُ اقتراحك وعندي اليوم عمل لك، أحضر كل رجالك مدججين برشاشاتهم واجلب معك كل الذخيرة التي يمكن أن تجدها.

وقمت بصف السجناء، سواء منهم "الفلاقة" أو العمال المسلمين الذين ساعدوهم في جرائمهم.

وفي لحظة الأمر بإطلاق النار عليهم، كان (الرضيع) أقل تحمسا من ذي قبل، وودّ لو أنه يرجع إلى المرأب، وهكذا كنت مضطرا لأن أعطي الأوامر بنفسي، و لم آبه لذلك.. كان يجب قتلهم، هذا كل شيء، ولقد قمت أنا بفعل ذلك.

قمنا بمغادرة المنجم، وتركنا هناك بعض الأقدام السوداء الناجين من المجزرة ليقوموا بعمليات الرصد والمراقبة.

وبعد بضعة أيام مثلما كنا نتوقعه، رجع "الفلاقة"، وبمجرد إعلامنا من طرف مُخبرينا، قمنا بالصعود إلى المنجم مع الفرقة الأولى، وأسرنا مئات السجناء الذين تم القضاء عليهم في عين المكان.

لقد تمت عمليات قتل أخرى بأمري بعد معركة سكيكدة، وقمنا بإلقاء القبض على حوالي ألف وخمسمائة رجل، لقد كانوا متمردين ألقي القبض عليهم من يومها أو بعد غد، وقمنا بتجميعهم في ساحة كبيرة، وقدمت مع أعوان الشرطة من أجل القيام بانتقاء، وكانت كل مصلحة من مصالح الاستعلامات العامة والأمن الحضري والشرطة القضائية ورجال الدرك تأخذ من تريد استنطاقه.

طبعا.. لقد كان من بين أولئك المساجين من يقطن بالجبال، وكان هناك بدويون انضموا إلى جبهة التحرير تحت الضغط والإكراه، وكنا نعرفهم في الغالب، ولهذا قمنا بإطلاق سراحهم.

غير أنه كان هناك آخرون متعطشون لمثل هذه الأعمال، وهم ... على
ستعداد ليعيدوا الكرّة لو أعطيت لهم الأوامر بذلك، وبمجرد انتـــهاء اســـتنطاقهم
لحصول على ما أمكننا الحصول عليه من المعلومات، ماذا كان علينـــا أن نفعـــل
بهم؟ لقد حاولت توزيعهم على مختلف المصالح التي قامت باستنطاقهم، ولكن بما أن
الأمر كان يتعلق بعناصر لا طائل من ورائها، فضّل الجميع تركهم لي لكي أتصرف
فيهم بمفردي.. لم يقولوا لي هذا بصريح العبارة، غير أنهم أوضحوا لي ذلك جيـــدا
من خلال تصرفاتهم. وعلى الرغم من ذلك، أصررت لكي لا يكون السجناء بـــين
يديّ، وكنت أقول:

- هيّا، حضرة المحافظ، إن هذا الرجل لك فخذه.

- ألا يمكن أن تتركه عندك، سأقوم بأخذه غدا.

- عزيزي المحافظ، إن هذا يؤسفني، ولكنني لا أعرف أين يمكن وضعه، وأنـــت
حضرة الدركي؟

- أنا؟ لا يمكن أن آخذه معي، لا يوجد مكان عندي.

- تبًّا، لقد بدأتم حقيقة في إزعاجي.. جميعا.

وأعدت الكرّة من الغد، لكنهم كانوا جميعا يتهربون كما بالأمس:

- وهذه المرة، هل تريدون أخذهم أم لا؟

وكان الجميع ينظرون بأعينهم صوب أحذيتهم.

- حسنا، لقد فهمت.

وهكذا قمت بتعيين فرق متكونة من ضباط صف، وأصدرت لهـــم الأوامـــر
بالإجهاز على السجناء.

لقد كنت أحرص على أن لا أعين أبدا نفس الرجال لأداء هذا النوع من المهام،
ونادرا ما كان الفاعلون من الذين يؤدون الخدمة العسكرية، إلاّ إذا كانوا مـــدربين
عندهم سنة واحدة من الخدمة على الأقل، بمعنى أنهم لم يكن لديهم تأنيب ضمير.

ولما انتهى كل شيء، قمت بإجراء جرد لما حصل وأعنت مفتشي الاستعلامات العامة في كتابة تقاريرهم.

كان المحافظ (أرناسان) في مهمة إلى فرنسا، وأقمت في مكتبه.

وعلمت بعد ذلك أن مجازر أخرى قد ارتكبت في مناطق العروشي وواد زناتي وفي القطينة وجمّابس.

وتم اغتيال قريب فرحات عباس في صيدليته بقسنطينة، بتهمة الولاء لفرنسا.

وقمنا بجمع الموتى المنتمين لجبهة التحرير المتواجدين في الشوارع وفي الملعب البلدي.

كانت هناك مئة وأربعة وثلاثون جثة مصطفة فوق أرضية الملعب وتحت حراسة جنود من الكتيبة 18، أما الذين سقطوا في الأحراش، فلم نعثر عليهم إلاّ بعد أيام من ذلك عن طريق الروائح المنبعثة منها، لأننا كنا في عز شهر أوت.

وفي المجموع، كان هناك قرابة 500 قتيل من جانب جبهة التحرير الوطني، بإضافة أولئك الذين هاجموا الحصون المؤدية إلى سكيكدة وكانت الرشاشات في استقبالهم.

وجاء الصحفي المحلي ليحوم حول الملعب، وقام بالتفاوض مع خفير هنالك وتمكّن من الدخول من أجل التقاط بعض الصور، بل وحتى نقل بعض الجثث كي يبدو الأمر أكثر واقعية، وبيعت الأفلام بأسعار ذهبية إلى مجلة ***LIFE***، وأصبح المئة وأربعة وثلاثون مجرما - بفضل التعليقات الأمريكية - مئة وأربعة وثلاثين من المساجين البؤساء الذين أُعدموا من طرف المظليين الفرنسيين.

لقد كانت الصورة مفبركة، غير أن الصحافة كانت تريد صورا تُثبت أننا أنذال وأوغاد، ولا يهم أي نوع من الصور تثبت ذلك.

طلبت من البلدية أن تضع مصلحة "خدمة الجنائز" تحت تصرفي، وطلبت منهم أن يدلوني على المقبرة الإسلامية، وكان يجب عليّ أن أحفر قبورا باتجاه مكة. كانت الأرضية في شهر أوت جد صلبة، ولهذا كان يجب أن أستعمل حفارة آلية،

ئانت الحفارة الوحيدة التي يمكن لنا الحصول عليها متواجدة في مدرسة الفلاحة.
هبت إلى المدير رفقة (سوتيرا) و(إيصولح) و(ميزيري)، ورجلين آخـــرين مـــن
'قدام السوداء" يدعيان (موريس جاكي) و(إيف كوومو)، وهما ضابطان مجندان
نعْملاً إلى غاية ذلك كسائق وميكانيكي فقط، وكانا يتكلمان العربية بطلاقة.
كان مدير المدرسة ضابطا احتياطيا، ومع ذلك رفـــض أن يعيرنــــا حفارتــــه،
ضطررت إلى تهديده بالإيقاف من أجل الرضوخ إلى مطلبنا فــسلّمنا الحفـــارة
ـائقا لها.

وقمت بحفر حفرة تبلغ مئة متر طولا ومترين عرض ومترا واحدا عمقا، وقمنـــا
ن الجثث.

وفي الغد، قدمت امرأة من مصلحة النظافة التابعة للمحافظة إلى مكتبي، وكانت
ـ السلطات في الجزائر العاصمة، حيث قاموا بتزويدي بـــ "أكسيد الكالسيوم"
أجل إخفاء الجثث.

وفي نفس اليوم، استلمنا - من العاصمة دائما - عن طريق رسمي رسالة مـــن
ـة القوات التي تأمر بإيقاف القمع. ولكن، ومن طريق آخر - وبسرية تامــــة -
ـت إليّ باسم (الملبنة)[13] أحر التهاني من طرف (لوفور)، خلــيفتي في وحـــدة
ليم بمصلحة العمليات.

وفي يوم الاثنين 22 أغسطس 1955، اتصل الجنرال (جاك ماســـو) بالعقيـــد
ير) من أجل إعلامه بإجرائه لزيارة، وكان (ماسو) يريد اســـتغلال الأحـــداث
حيرة من أجل تفقّد وحدتنا. لقد كان يحمل – حينها - لقب (قائـــد الوحـــدة
شرة للمظليين)، ولكنها لم تكن وقتئذ منظمة كما ينبغي.

ـكر المؤلف أن "الملبنة" هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على مصلحة التوثيق الخارجي والتجسس المضاد.

وفي أقل من سنة من الحرب، لم يكن لـ (ماسو) الوقت الكافي ليتعرف جيدا على الوحدات الموضوعة تحت أمره، لقد كان جد مشدوه عندما علم أننا لم نفقد في حرب ضارية مثل التي خضناها غير رجلين فقط.

وبعدما تناول الغداء، وقبل أن يصعد في طائرته المروحية، قام أخيرا بطرح السؤال الذي كان يشغل باله على (مايير):

- احك لي شيئا مما جرى، فهناك شيء لم أفهمه في كل هذا.

- ولكنّ هذا جدُّ بسيط، كنا على دراية بالهجوم بدقة كبيرة حضرة الجنرال، واسأل ضابط الاستعلامات النقيب (أوساريس).

- من يكون هذا؟

- أحد ضباط المصالح الخاصة، كان مظليا في "فرنسا الحرة" وقدم إلينا من فرنسا.

وطلب (ماسو) إحضاري، فلما امتثلت أمامه واقفا قال لي:

- ما الذي فعلته لتحصل على المعلومات؟

- لقد فعلت ما ينبغي فعله، وهناك من قام بمساعدتي.

- من هم؟

- أعوان الشرطة مثلا.

وأطلق (ماسو) غمغمة وصعد في طائرته المروحية دون تعليق، وكنت أجهل حينها إلى أي حد كان (ماسو) قد أبدى اهتماما بي.

وبعد ذلك بقليل، تلقينا رسالة من الجنرال (لوريُّو) القائد العسكري الأعلى في الجزائر. لقد كان يريد ملاقاة الضباط المرتقب ترقيتهم، غير أنه لم يُرقّ أحد فينا، ولم يحصل أحد منا على مكافأة، لقد انتزعنا آلاف المدنيين من أنياب الموت ولكن الجمهورية لم تعرفنا.

وكانت (بريجيت فريان)، وهي صحفية اشتغلت سابقا في المصالح الخاصة، قد قدمت للقيام بتحقيق حول هذه المسألة، وكانت تعرف جيدا (بروسبير) و(مونات).

لقد كنا نثق فيها أنا و(مايير)، وهكذا قمت بإعطائها تفاصيل ما حدث.

وبعد ذهابها، قمت بإعلام (بروسبير) فقال:

- وماذا قلت لها؟

- الحقيقة.. حضرة العقيد.

- الحقيقة!

- نعم الحقيقة، قلت لها بأن الشعب المسلم أقرّ عملنا وهو يساندنا بقوة.

وانفجر (مايير) ضاحكا.

غير أنه عندما صدر المقال، كان غريبا أن نرى أنه لم يكن أبدا في صالحنا، وأرسلت (بريجيت) رسالة إلى (مايير) تعتذر له فيها، لقد قاموا بتحريف تحقيقها، ولهذا اضطرت للاستقالة من الجريدة.

أثناء التسعة أشهر التي تلت ذلك، كان الهدوء يُخيّم - نوعا ما - على سكيكدة، وذلك أن كثيرا من المنحرفين واللصوص المنتمين إلى جبهة التحرير الوطني لقوا حتفهم في يوم 20 أوت والأيام التي تلتها. وهكذا، صارت المدينة جد هادئة لدرجة أن القاضي (فوغليماتشي) تمكّن من أخذ قسط من الراحة.

مسعود الصغير

في الخريف، ونظرا للحوادث التي كانت تجر وراءها محاولات الانتقام، رأيت أنه من الأفضل أن أقوم بترحيل عائلتي إلى فرنسا، وكان هذا هو نفس ما قام به كثير من الضباط، وذلك لأنه لم يكن من النادر أن تستهدف جبهة التحرير عائلات الضباط، فلقد كانت كل الطرق مستعملة.

وفي خلال اجتماع عقدناه مع المحافظ (فيليبرتي)، قال المحافظ (بلان)، أحد مساعديه، بأن أفضل طريقة للتخلص من مشكل جبهة التحرير نهائيا هي القضاء على رؤوسه المدبرة والمخططة برصد مكافآت مالية لمن يقوم بذلك، واستحسنت الفكرة مثلما استحسنها (فيليبرتي).

وتم إعداد قائمة بسبعة أسماء كان من بينها زيغود يوسف وغرس الله مسعود.

وقمنا بتحرير منشور خاص بكل واحد من أولئك الزعماء، ومبالغة في الاحتياط، قام (إيصولح) بترجمتها إلى العربية، غير أن ذلك لم يكن ضروريا لأن أغلب المسلمين المتعلمين يجيدون الفرنسية أكثر من العربية، وتم التركيز على الصور والمبلغ المرصود للمكافأة.

ولم يكن للمحافظ مبلغ خاص من أجل طباعة المناشير فضلا عن دفع المكافأة، وهكذا توجهنا إلى مصلحة الدعاية التابع للحكومة العامة التي قامت بطباعة المناشير سبع مرات بمعدل خمسة آلاف نسخة في كل مرة. وقامت مصالح الطائرات الخفيفة التابعة لوحدات المشاة بتزويدنا بطائرة.

قمنا باختيار نقاط الإلقاء الاستراتيجية، وكان من بينها الحي العربي بسكيكدة فيما يخص جميع المناشير، والمنحدر الذي كان يطل على أرضية الطيران بالنسبة للمنشور الخاص بـ (مسعود الصغير).

كما أننا لم ننس توزيعها حتى في المبغى العام بسكيكدة، حيث كانت مديرته عميلا مخلصا للمحافظ، والعجيب أن هذه المسلمة كانت تُغلق مبغاها في أيام الجمعة المقدسة!

وبعد عملية الإلقاء هذه، جاءت مديرة المبغى مسرعة إلى محافظة الشرطة لكي تقول لـ (فيليبرتي) بأن المناشير حققت نجاحا باهرا بين أوساط "عاملاتها"، وذلك لأنهم تمكنوا من التعرف على كثير من المطلوبين الذين كانوا يرتادون ذلك المبغى.

وعندما رأى رجال (مسعود الصغير) تلك المناشير، بدأوا يَرمُقون قائدهم بنظرات غريبة جعلت القلق والشك يتسربان إلى نفسه.

وفي نوفمبر 1955، وصلت الوحدة الثانية للمظليين لكي تخلف الوحدة الأولى التي كانت متوجهة إلى خنشلة في منطقة الأوراس.

وهكذا كان من المفترض أن تُشرف مهمتي كضابط استعلامات في سكيكدة على نهايتها، ولكن القائد الجديد للمنطقة، العقيد (لاكابيل)، أمرني بأن أبقى في سكيكدة رفقة فريقي، واضطررت إلى الامتثال لأمره دون تحمس، لقد كان استقباله لي باردا ودون حفاوة، وسلمت مهامي بسرعة إلى اللذين قاما باستخلافي: القائد (هاب) والقائد (فيال).

كان (هاب) ضابطا في الشؤون العسكرية الخاصة بالمسلمين، وشغل منصب ضابط استعلامات في ذلك القطاع، وهو يتكلم اللغة العربية بطلاقة. أما (كلوديوس فيال)، فإنه كان ضابط استعلامات سابق، ولهذا كانا يعرفان طبيعة عملهما، غير أنه كان عليَّ أن أقوم بتعريفهما بالمنطقة بسرعة، وقمنا - تبعا لذلك- بعملية كبيرة بمساعدة رجال المحافظ (فيليبرتي).

لقد قمنا بإنشاء وحدة كومندو، واقتادنا ذلك إلى مُتّهم في سكيكدة.

وقمنا باستنطاقه أنا و(إيصولح)، وتم الاستنطاق دون عنف ولا قوة، وبدا الرجل مستعدا لأن يُمدّنا بيد العون، وكان يجب علينا التحدث لثلاث ساعات كاملة دون أن نفقد أعصابنا، غير أن الرجل بدا عليه أنه صادق النية و لم يقاوم، لقد كان

بائع أسلحة يقوم بحراسة أحد المخازن، وأخبرنا عن وجود مغارة قرب غابة محترقة. ولكنه ورغم صدقه لم يتمكن من تعيين المكان فوق الخريطة. غير أننا وبمساعدة طائرة استطلاع، تمكّنّا من ملاحظة أشياء في مناطق بعيدة عن سكيكدة نوعا ما، وبهذه المعلومات الهزيلة قمنا بتنفيذ العملية.

لقد مشينا كثيرا، إلى درجة أن العقيد (ماسلو) الذي كان يقود الوحدة الثانية للمظليين الغرباء أراد الرجوع، ويجب القول بأنه لم يكن يحبني على الإطلاق، لقد كانت مغامراتي النسائية تثير غيرته، وكان (إيصولح) من جهته يرافق أحد القواد الذين كانوا يضعون أنفسهم في مصاف الأكابر، وقال هذا القائد:

– حضرة الرقيب، إن معلوماتكم المزعومة لا تساوي شيئا، ها نحن نسير لساعات من أجل لا شيء، هل سيدوم هذا اللعب طويلا؟

– صبرا حضرة القائد! يجب علينا أن نواصل، إن المعلومات صحيحة وأنا متأكد من ذلك.

ومن أجل تهدئة الخواطر، تقدم (إيصولح) مستطلعا وتوغّل في الجبال رفقة بعض الجنود، وهكذا وصل إلى الغابة المحروقة.

وصادف ذلك أن مرّ أحد "الفلاقة" من هناك، وأطلق عليه (إيصولح) النار، توقف "الفلاقة" ثم عاود المشي، وأطلق (إيصولح) النار مرة أخرى، وتوقف "الفلاقة" رافعا يدا واحدة، وذلك أن يده الأخرى تلقت الرصاصتين اللتين أطلقهما (إيصولح).

وقادنا الأسير إلى مخزن الأسلحة، وهكذا وجدنا هناك مئة وخمسين بندقية، وكانت في مجملها بنادق من نوع "ستاتي" إيطالية الصنع، وبعض بنادق الصيد.

وسقط (زيغود يوسف) في كمين نصبه سنغاليون في الحدود الغربية لمنطقة سكيكدة، ولم ينجُ لا هو ولا أحد من رجاله، فالقنّاصون السنغاليون جادون في عملهم. غير أن وحدة قسنطينة أخبرتنا بأنه علينا تدبير أموال المكافأة لوحدنا،

واضطر أحد قواد وحدة المظليين الأولى للتضحية بعلاوته التي حصل عليها جراء الترقية من أجل دفع ثمنها.

أُخبرت بأن مهمتي في مقاطعة سكيكدة قد انتهت، وكانت علاقاتي متوترة نوعا مّا مع الوافدين الجدد، ومن أجل تغيير أفكاري وتجديدها اقترح عليّ (جورج مايير) الاستجابة لطلب مقدم من طرف "إدارة الأشخاص" في القوات البرية، لقد كانوا يبحثون عن ضباط من أجل إجراء تربص في إنجلترا، وكان يجب على المترشح لذلك أن يكون ذا خبرة - نسبية - في مجال المهمات المنجزة عن طريق الطائرات، وكان هذا متوفرا فيَّ.

وهكذا ذهبت إلى إنجلترا.

وفي ربيع 1956، أُرسلت إلى معسكر (ساليس بيري) من أجل تدريبات سرية لمدة شهر كامل، وكان هناك فرنسيون وبريطانيون وأمريكيون يتدربون على كيفية الدعم الناري والدعم الخاص بالنقل، وكنا ندرس كيفية نقل وحدة مظليين تتكون من خمسة آلاف رجل من أجل عملية في مكان مّا من البحر المتوسط، كان يجب علينا تقسيم الوحدة بين الطائرات الموجودة، اختيار المطارات، وتقدير الوزن، وقمنا بإنجاز عمل جدّ دقيق، وتمت دراسة الإقلاع من قبرص وتركيا.

ولم نكن نعرف حينها أننا كنا نحضر لعملية (السويس).

أثناء عودتي في شهر مايو 1956 توجهت إلى خنشلة، وأمرني (مايير) بالبقاء في عنابة، أين كانت توجد القاعدة الخلفية للوحدة، وكان يريد مني إعادة تنظيمها.

وحين وصولي، علمت بأن القيادة قد قررت بأن يتدرب فيها المظليون على إجراء قفزات مكثفة بوحدات تحوي ثلاثة آلاف رجل، وكانت تلك مرحلة أخرى من مراحل التحضير لعملية (السويس)، وقدمت وحدات كثيرة من أجل القفز، وكان من بينها وحدة المظليين الثالثة التابعة للملازم العقيد (مارسيل بيجار)، وكنت أعرفه جيدا، فقد قمنا بالقفز معا في مكان واحد في الفيدرالية الفوضوية الإيبيرية سنة 1944. واقترح عليَّ (بيجار) بأن أقوم بالقفز مع وحدته يوما بعد

ذلك، في 01 يونيو 1956، والتقينا في الميدان بمساعده (لونـــوار) المُلقَّــب بـــــ (العجوزة).

وبما أنني كنت ضيفه، كان عليَّ أن أقفز أنا أولا، وهذا يعني أن أكون آخر من يصعد إلى الطائرة.

كانت المظليات تُطوى في سكيكدة من طرف أخصائيين يعملون ليل نهـــار، ثم يقومون بتكديسها قرب أرضية الإقلاع، وكان كل واحد من المظليين يأخذ واحدة منها عند مروره هناك، واعتقدتُ أنني جد محظوظ عندما وجدت واحــــدة بعــدما أخذ أفراد الوحدة كلهم أماكنهم داخل الطائرة، غير أن الحظ - في الحقيقـــة - لم يكن في شيء من ذلك.

في نفس اليوم بسكيكدة، علم (فيليبرتي) بأن محافظته ستتعرض لهجوم من طرف وحدة كومندو، وقام بإعلام القائد (فيال)، واستعد الجميع لاســتقبال المهـــاجمين الذين لم يكونوا غير (مسعود الصغير) واثني عشر فردا مـــن رجالـــه. وحـــدثت اشتباكات عنيفة تم خلالها القضاء على (مسعود الصغير) وكل رجالـــه، وتعـــرض (فيال) لجروح خطيرة جرّاء تلقيه رصاصة بحجم (9 مم) اخترقت عظم فخذه دون إصابة الشرايين، من حسن حظه.

وفي عنابة، أُلقيتُ على بعد أربع مئة متر، وكلي فخر وجميع الوحـــدة الثالثـــة للمظليين تتبعني، وكانت طريقة انفتاح المظلية قد أثارت استغرابي لحظتها، وانتبهتُ بسرعة إلى أنه لا يمكن لي استعمال يدي اليمنى، فلقد كانت المظلية ملتوية، والتفّت حبالها حول ذراعي الذي صار محبوسا. كان يجب عليّ أن أفتح مظلية الطـــوارئ المتواجدة على مستوى البطن بسرعة، غير أنه نظرا لحب صادق تجاه الوحدة الثالثة لم أفعل ذلك.

وبدأت الأرض تقترب شيئا فشيئا، وبدأتُ أسمع صوت الأشخاص في الأســـفل وهم يصرخون:

- مظلية الطوارئ.. مظلية الطوارئ!

وظننت أنه كان عندي الوقت الكافي قبل أن ألجأ لفتح مظلية الطــوارئ، وفي ـحظة الأخيرة تشبَّثْتُ بها وجعلتها قبالتي لأتمكّن من فتحها، غير أنهـا لم تنفــتح جيدا، وحاولت أن أبعدها عني لأقوم بطيّها وإعادة فتحها من جديد، فانفتحت!

وفي نفس اللحظة، أحسست بهزة عنيفة. لقد لامست قدماي الأرض، ولم أعد ُحس بأدنى شيء، لقد كان شيئا خارقا أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة.. النظــر ـى أولئك الرجال الذين يترلون من السماء. وسمعت صراخات مستجدية أطلقهـا سائقي، وحاولت جاهدا أن ألتفت نحوه فلم أستطع، لقد كنت مشلولا، غير أني لم ُفقد وعيي.

كنا أربعة عشر رجلا وجد نفسه في المستشفى.

وقالت لي إحدى المتديّنات اللاتي كُنَّ يقمن بالحراسة:

- أنت جدُّ محظوظ، مجرد كسر في العمود الفقري، كان أحسن من كــسر في ـرجل.

- هل تمزحين؟!

- أبدا! حضرة النقيب، إن العمود الفقري يُمكن إصلاحه، غير أن الأرجــل لا ـكن فيها ذلك، أنا معتادة على هذا.

وأكّد لي الجراح بأنه تعرّض لنفس الكسر في حادث دراجة، وأطلقت ضــحكة حزينة وأنا أستعيد في ذهني صور إقلاعي بدراجة (هارلي دافيدسن) عندما كنــت ـِ حصن (مون لوي)، مقر كتيبة (الصدمة 11).

وخاطبت الدكتور - حينها - قائلا:

- دكتور.. أخبرني بالحقيقة، سوف أصير مشلولا، أليس كذلك؟

- أعدُك بأني سوف أعمل كل ما بوسعي حتى لا يحدث ذلك، وســأقوم أنــا ـخصيا بإجراء العملية، فلا تقلق.

- وإذا نجحت العملية، هل يمكنني القفز مجددا؟

- بعد ستة أشهر من الآن.

وكان الطبيب مقتدرا، حيث قام بمدّي حسب طريقة أحدثها البروفيسور (ميرل دوبيني) على ما يُقال، أحد الجراحين المشهورين آنذاك، وبعد ذلك قام بوضع الجبس.

وحُوّلت إلى مستشفى الجزائر العاصمة ثم نُقلت إلى فرنسا، وبقيت لمدة أربعة أشهر دون حراك، كنت أتنقل في المستشفيات العسكرية الباريسية، من مستشفى (بيرسي دي كلامار) إلى مستشفى (فيلمان)، وبعدها قرب المحطة الشرقية.

و لم أرجع إلى الجزائر إلا في أكتوبر سنة 1956، وبخيبة كبيرة علمت أن أغلبية وحدتي قد ذهبت دوني إلى قبرص. و لم يكن مسموحا لي أن أقفز بالمظليات إلى غاية ربيع 1957، غير أن ذلك كان أفضل من البقاء في كرسي متحرك.

وفي يوم 15نوفمبر 1956، علمت أن الوحدة الثانية لمظليي سكيكدة قد قفزت فوق السويس قبل يوم من ذلك، لقد كانت الدموع تغرورق في عيني وأنا أتخيل صور أولئك الرجال في سماء مصر.. و لم يكن ليتمَّ عقابي بشيء أفظع من هذا.

لقد كان لي الحظ بأن أمُرَّ بالجيش النظامي، وكانت هناك حرب يتم فيها استعمال المظليين لأول مرة وفق قيمتهم الحقيقية، وأنا هنا لا أستطيع حراكا رغم أني حضّرت العملية بكل تفاصيلها!

وقامت وحدة المظليين الأولى بالإرساء. غير أن وحدتي بقيت في قبرص وأصابها الضجر هنالك، وكان ذلك هو عزائي الوحيد.

الجزائر العاصمة

رجعتُ إلى منطقة (الشبلي) في سهول المتيجة، أين توجد القاعدة الخلفية للوحدة، وكانت هذه القاعدة تحت قيادة القائد (لافارغ) الملقب (بيتانك)، أحد الزملاء المرحين الذين قضيت معهم زمنا في (سان ميكسان)، غير أنه كان يكبرني ببضع سنوات.

وتم إسكاني في فيلا أعارها (روبر مارتيل) إلى العقيد (مايير).

كان (مارتيل) أحد الأقدام السوداء المؤيدين لقضية "الجزائر الفرنسية"، وكان مرموقا ومعروفا وجد مؤثر في الجزائر، كما أنه قام بإعارة عدة مزارع من أجل إيواء باقي الجنود.

لم يكن يحدث شيء يُذكر في (الشبلي) التي كنت لا أعرف فيها أحدا، وكان (لافارغ) يربط علاقات طيبة مع القطاع المجاور الذي كان تحت قيادة الوحدة الثالثة لصيادي إفريقيا - وحدة المدرعات، التابع للعقيد (آرغو)، وهم على الأقل كان عندهم شيء من العمليات، وذلك لأن أولئك الفرسان كانوا يقاتلون مثل الأسود في جبال الأطلس البُليدي، أما نحن فلم تكن لدينا الإمكانيات اللازمة للذهاب هناك لأننا لم نكن سوى مئات معدودة، حديثة التحويل أو توجد في فترة نقاهة.

وتم تعييني رائدا، ومن هذا المنطلق، لم يعُد من الممكن لي مزاولة مهام ضابط استعلامات، وصرت قائدا لقيادة قوات الوحدة وكان (لافارغ) يغبطني، ويقول لي بأنني لن أضطر للعمل لأكثر من ساعة واحدة في اليوم، غير أن أعمال الراحة لم تكن لتستهويني، وكنت بذلك واقعا تحت سلطة الملل.

وهكذا، أخذت الوقت الكافي من أجل متابعة ما يجري من أحداث.

لقد عرفت الحالة تدهورا كبيرا في فترة غيابي، وكانت عشرات العمليات تنفذ يوميا، خاصة في العاصمة التي قررت جبهة التحرير تكثيف أعمالها فيها.

كانت العاصمة مدينة آهلة بالأقدام السوداء، وكانت الاستراتيجية المتبعة هي إيقاعهم في يأس تام يضطرهم للرحيل والهروب، وكانت "المنطقة المستقلة" منظمة

عسكرية وسياسية في نفس الوقت، حيث أسستها جبهة التحرير من أجل احتواء الأحياء المسلمة في العاصمة، ومن بينها "القصبة"، أحد الأحياء ذات الأزقة الضيقة والمتاهات، وبها منازل متكونة من ساحات داخلية وسطوح، وكانت توفر للمتمردين حصنا منيعا. وشرعت هذه المنظمة في مضاعفة العمليات الإرهابية إلى درجة أن الحكومة وجدت نفسها تتجه بسرعة نحو طريق مسدود.

وكانت الجزائر العاصمة مسرحا لثلاث أو أربع عمليات يوميا، وكانت هذه العمليات تستهدف المدنيين بالدرجة الأولى، حيث تكون العمليات أكثر وقعا وإيلاما.

كانت "المنطقة المستقلة" في العاصمة وضواحيها تحت قيادة رجل ذي ثلاث وثلاثين سنة اسمه (العربي بن مهيدي)، أحد أبناء عائلة مزارعين أثرياء، زاول دراساته في المسرح قبل أن يخوض غمار العمليات الخارجة عن القانون، وكان يخطط لأن يُصعّد من درجة الإرهاب إلى حد أن تضطر فرنسا للتخلي عن الجزائر.

كما أنه كان ينتظر ردودا أكثر قوة وحدّة من طرف السلطات الفرنسية كلما كانت العمليات أكثر فاعلية وقوة واستعراضا، وفي يوم 30 سبتمبر انفجرت قنابل في (الميلك بار) وفي أحد المقاهي، وهي أماكن كان يرتادها الشباب العاصميون، وتم إحصاء أربعة قتلى، واثنين وخمسين جريحا، أغلبهم مشوه.

وكان بن مهيدي مُعانا من طرف (ياسف سعدي)، أحد الخبازين في القصبة، وعمره 28 سنة، وكذا من طرف المُهاب (علي لابوانت).

ولم أكن أعرف الدور الذي كنت سألعبه في قدر أولئك الرجال، بل لم أكن حينها أعرف حتى أسماءهم.

وفي شهر نوفمبر 1956، استحوذ الرعب على الجزائر العاصمة، ففي ظهيرة يوم 13 من الشهر، ألقيت ثلاث قنابل من طرف مناضلي جبهة التحرير، إحداها في حافلة في محطة حسين داي وخلّفت 36 ضحية، والثانية في متجر كبير وخلّفت تسعة جرحى في حالة خطيرة، والثالثة في إحدى المحطات.

وفي اليوم الموالي، تم إيقاف (فيرناند إيفتون) أحد عمال مصالح الكهرباء والغاز بالعاصمة، وهو من مناضلي "الحزب الشيوعي الجزائري"، وهو يحاول إخفاء قنبلة موقوتة شُغّلت في حجرة الثياب التابعة للمؤسسة، وتم اكتشاف القنبلة بسبب أن أحد العاملين سمع دقات ساعتها وأطلق التحذير.

وتمكنت تحريات سريعة من الكشف أن (إيفتون) قام بتحضير قنبلة ثانية، ولحسن الحظ فإن الجهاز كان مبرمجا بطريقة رديئة، وهكذا تمكن الأعوان من اكتشاف القنبلة ساعات بعد ذلك خلف مفوضية الأمن المركزي.

وفي يوم 28 من نفس الشهر، انفجرت ثلاث قنابل أخرى في قلب الجزائر العاصمة، وكان وضع هذه القنابل في يوم واحد وفي ساعة واحدة يستلزم وجود تنظيم محكم ودقيق، من قائد "المنطقة المستقلة" إلى واضعي القنابل (رجالا ونساء)، وكان هناك بنية وشبكة متواطئين (مخبرين، ممونين بالمتفجرات، صانعي القنابل، مساكن..)، وهذا يستدعي تجنيد آلاف المناضلين.

شهرا بعد ذلك، وفي ليلة عيد الميلاد، قتلت قنبلة أو شوهت أطفالا[14] حيث وضعت في حافلة مدرسية، وتم كذلك اغتيال رئيس المجلس العام للجزائر العاصمة "آيت علي" وكذا (أميدي فرُوجي) رئيس بلدية بوفاريك ورئيس فيدرالية رؤساء بلديات الجزائر من طرف علي عمار، المدعو (علي لابوانت)، وصدمت هذه العمليات الجميع.

وفي 30 ديسمبر، أثناء الموكب الجنائزي الخاص بـ (فرُوجي) تشكّل تجمع حوالي 20 ألف شخص في العاصمة، وعمد بعضهم إلى ارتكاب تجاوزات قاتلة ضد المسلمين.

وفي هذا الجو المليء بالرعب، عادت وحدتي من قبرص في نهاية ديسمبر 1956، ورجع معاونيّ القدماء، باستثناء (إيصولح) الذي تم إرساله إلى مدرسة الضباط، وكذا (سوتيرا).

---

[1]- يُلاحظ أن المؤلف لم يتمكن من معرفة مخلّفات القنبلة بالضبط، ولهذا أورد خبر حصيلة الخسائر بصيغة شك.

وقدم المعلم (زميد)، أحد المجندين التونسيين، و"الفلاقة" السابق (باباي) كإمداد، وأصبحوا الآن تحت يد ضابط المعلومات الذي خلفني، القائد (أسيما)، و لم يتمكن من جعل الآخرين يتقبلونه، وذلك أنه كان يُلام لأنه مكث مدرسا في مدرسة الخيّالة في المغرب، و لم يذهب إلى الهند الصينية كي يُقتل مثلما فعل الجميع.

وبقيت في (الشبلي) إلى غاية مطلع سنة 1957، وكنت آمل أن الوحدة سوف تذهب عن قريب للقيام بعمليات عسكرية، غير أنه لم يكن هناك شيء يوحي بذلك في الحين.

وفي الظاهر، فإن جبهة التحرير كانت تحترز من ردود الفعل الممكنة للجيش الفرنسي بعد عملية "السويس". أما عندنا، فإن الخيبة هي التي كانت المنتصر الأول، وذلك لأن تلك العملية التي حُضر لها بعناية ودقة قد أُجهضت لأسباب سياسية ودبلوماسية، وكنا نأمل في الحصول على فرصة من أجل الأخذ بالثأر.

وفي 07 يناير 1957، تلقى (بروسبير) مكالمة هاتفية من طرف العقيد (غودار)، الرقم الثاني في الوحدة العاشرة للمظليين، وقال له:

- لقد عُين (ماسو) في مهام كبيرة، إنه الآن المدير العام لإدارة مدينة الجزائر العاصمة وشمال المقاطعة، وسوف يقطن في المحافظة، وهو في حاجة إلى تكوين قيادة للقوات.. أرسل إلينا ضابطين من ضباطك.

- وما هي طبيعة المهام؟

- إن المهام ليست محددة بعد، وإنما يتعلق الأمر بحماية الشعب ضد إرهاب جبهة التحرير الوطني.

وهكذا، سلم الوزير المقيم (روبر لاكوست) صلاحياته المتعلقة بالشرطة إلى (ماسو) ووحدته العاشرة للمظليين، وكُلّف بمهمة "استئصال الإرهاب في الجزائر العاصمة".

وقام (مايير) باستدعائي وأخبرني بما دار بينه وبين (غودار)، وطلب مني التفكير باسمين يمكن اقتراحهما.

بعد الشهور التي قضيتها في سكيكدة، ونظرا للأوضاع التي آلت اليهـا الجزائـر العاصمة، تصورت - دون عناء - طبيعة المهمة التي أوكلت إلى (ماسو)، وذلك لأنه لما لم يُمكن القضاء على الإرهاب الحضري بالطرق البوليسية والقضائية العادية، طُلب من المظليين القيام بمهام الشرطة والقضاة، وإذا احتج أحد مّا بأن هـذا لـيس مـن صلاحيات العسكري، فإنهم يُعلمون بأن المتمردين قرروا شن الحرب في المدينة عـن طريق التخويف، وأن العسكريين لا يقومون إلا بأداء مهامهم عن طريق محاربتـهم، فإرهابيو المدن و"الفلاقة" في الجبال لم يكونوا غير عدو واحد في الواقع.

لقد فهمت هذا المنطق، غير أنني لم أكن أريد أن أخوض هذا الغمار مجددا مهمـا حدث، لأن ذلك سيؤدي بنا - حتما - إلى تلطيخ الأيادي.

إن تعيين ضابطين من أجل قيادة القوات التي أنشأها (ماسو) لم يكن هدية تقـدم إليهما، وإنما كان ذلك يعني أن يرسلوا مباشرة لاقتفاء أثر خمسة آلاف إرهابي متخفين وسط الشعب، ومع- كعرفان بالجميل - سوى على سخط قياداتهم والمقت العام من طرف الناس.

وقلت ضاحكا:

- لا أظن أنني أحتاج إلى تفكير كبير، لقد وجدت من يقوم بذلك.

كنت أعرف ملازمين كـادت أسماؤهمـا أن تكـون متطابقـة: (شـاربونيي) و(أربونيي)، وقبل شهر من ذلك، طلب كل منهما مغادرة الوحدة مما جعلهما محـل الأنظار غير الراضية عنهما.

كان (شاربونيي)، وهو أحد قدماء الضباط الاحتياطيين، يرى أن الترقيات جـدُّ نادرة في وحدة المظليين الأولى، وحاول جاهدا الالتحاق بمصالح الطـائرات الخفيفـة التابعة لوحدات المشاة، دون جدوى، وتم من ثم إرساله عندنا.

ونظرا لإجرائه، صار محل نبذ من طرف مسؤوليه: النقيب (بيزار) والرائد (ماسلو المدعو (بوتيلا)، غير أنهما لم يريدا إرساله لممارسة مهام حفظ النظام، لأن ذلك يعـد فظيعا بالنسبة له مقارنة بما كان يأمله.

أما (أربونيي)، فكان أحد قدماء ضباط الصف الذين وجدوا أنفسهم محوَّلين إلى "الوحدة الرابعة"، وكان لابد أن يسعد بذلك لأنه كان يأمل التخلص منها وينشُده.

ولم يفهما أين سيضعان أقدامهما، غير أنهما كانا فرحين بمغادرة الوحدة.

وعاود (غودار) الاتصال ساعات بعد ذلك، لقد تطور الوضع ولم يكن (ماسو) يريد ضابطين جاهزين للتنفيذ فقط، بل صار يريد ضابطا أسمى ليكون معينه في إطار قيادة للقوات موازية، والمشكلة هي أن ذلك الضابط المطلوب هو أنا!

وأخبرني (مايير) بارتباك قائلا:

- إن (ماسو) يريدك أن تلتحق به.. لقد أخبرني (غودار) بهذا.

- ولكن لماذا أنا بالذات؟!

- من أجل ما فعلته في سكيكدة، لقد انبهر (ماسو) بالعمل الذي قمت به هناك.

- كان عليك أن لا تقول له شيئا مما حدث، لقد وضعتني في أمر قذر، و(غودار) يقوم باستعراض نفسه عن طريق تحضير أشياء قذرة كهذه.

- لو لم أقل شيئا لـ (ماسو) لكان سيعرف ذلك لا محالة، ثم كف عن الصراخ في وجهي فلعل الأوامر قد صدرت من فوق، ولا تنْسَ أن هذه المهمة لا بأس بها.

- لا بأس بها.. هل أنت جاد في هذا؟! أتعرف ما الذي سيطلبون مني فعله؟ سوف يطلبون مني فعل كل الأعمال القذرة.. إنها سكيكدة بسيناريو أفظع.. اسمع.. أنا لم أولد من أجل تنقية القصبة.

- وهل تظن أننا هنا لن نكون مجندين لذلك؟ إن كان (غودار) يستعرض رفقة قيادة القوات، فإن كافة الوحدات ستتجرع العلقم.

وقلت حينها:

- على كل حال.. لا يعنيني هذا، لن أذهب! أنا أمتنع عن ذلك!

- وماذا ستفعل؟

- أرسلوا (بيتانك).. فهو يشبه (ماسو)، إنهما خُلقا للتفاهم والاتفاق، قُل ما تشاء لـ (ماسو) أو (غودار) أو غيرهما، غير أنني سأبقى هنا.

عندما رآني (مايير) في تلك الحالة، فزع وقام بالاتصال بـ (لافارغ) الذي وافق على استخلافي، وهكذا اتصل (بروسبير) بـ (ماسو) ليحاول إقناعه، غير أن الجنرال غضب غضبا شديدا، فهو لم يكن من النوع الذي يُعارض كثيرا، ولا حتى من الذين تنطلي عليهم التبريرات الواهية، وقال:

- اسمع يا (مايير)، كفى الآن، أرسل لي (أوساريس) وبسرعة.. هل تفهم؟
- وإذا أبى حضرة الجنرال؟
- إذا أبى فليحضر كذلك.

لقد قرر (ماسو) إنشاء قيادة قوات "موازية" ومستقلة عن القيادة التي كان يشكّلها عن طريق دمج ضابطين في كل فرقة من فرق الوحدة العاشرة، بما يعادل عشرات الضباط في المجموع. وقلت إنها "موازية" حتى لا أقول إنها كانت في حقيقة الأمر "سرية".

كان يُفترض أن يكون هذا الفريق متكونا من مساعدين اثنين محل ثقة، وتم تعيين الأول مسبقا، لقد كنت أعرفه منذ زمن بعيد، إنه الملازم العقيد (روجيه ترانكيي) أحد رجال المصالح الخاصة، لقد كان رفيق درب السلاح مع (ماسو) وكان مستشاره وأمين سره. وكان مكلفا على الخصوص بوضع مخطط لمواجهة التخريب ومراقبة السكان. لقد كان (ترانكيي) و(ماسو) قريبين جدا، وتم تعيينهما ملازمين في يوم واحد، أحدهما تخرج من (سان سير) والآخر من (سان ميكسان)، وكان (ترانكيي) من منطقة (الآلب المنخفضة)، وكان سيصبح مدرسا قبل أن يكتشف ميوله خلال أدائه للخدمة العسكرية، لقد كان نشطا وفضوليا، وكان يُظهر مقدرة كبيرة على الإبداع في مبادراته.

وبعد مروره على وحدة استعمارية، أين كانت المصلحة جاحدة لخدماته، مكث بعض الشيء في حامية بـ (شنغ - هاي)، وكان مولعا بآسيا.

وفي نهاية الحرب، خاض معارك في الهند الصينية، في إحدى أولى كتائب المظليين الاستعماريين، ثم حاز بجدارة على قيادة مجمّع القتال المختلط المنقول جوا، وكانت هذه الوحدة الخاصة تتبع مصلحة العمليات التابعة لمصلحة التوثيق الخارجي والتجسس

المضاد، حيث كانت مهمته تتمثل في العمل داخل خطوط (الفييتمينه) والحصول على المعلومات اللازمة للعمليات الخاصة بنقل الجنود في الطائرات، لقد كانت عند (ترانكيي) قدرة خارقة على التأقلم، ويمكن القول إنه عنده كل ما يلزم من أجل النجاح في المواقف الأكثر صعوبة. وعُين في الجزائر قائدا لقاعدة طيران شمال إفريقيا الفرنسية، وهي تنظيم مستقل كان يتخذ من منطقة "البليدة" قاعدة جوية له، وهو مكلف بالنقل وإلقاء المظليين مع مهمة التعليم والعمليات، وكانت هذه القاعدة تُوجّه مدارس القفز دون التدخل في التفاصيل.

وصادف أنني كنت أعرف (ترانكيي) جيدا لأنني التقيته في الهند الصينية، وبعد حل كتيبتي، كنت من الأوائل الذين حُوّلوا إلى مجمّع القتال المختلط المنقول جوا.

كان (ماسو) محتاجا لمعاونين اثنين، (ترانكيي) من أجل الاستعلامات وآخر من أجل العمليات، وكان يجب على المعين الثاني ربط اتصالات دائمة مع أجهزة الشرطة وقواد الوحدات وضباط الاستعلامات التابعة لها.

وهكذا اختارني (ماسو) لأداء هذا العمل، وكان اختيارا دقيقا نظرا لعدد الأشخاص الذين كنت أعرفهم.

ولو لم أفترض أن الأوامر صدرت فعلا من فوق، لقلت إن (غودار) هو الذي اقترح على (ماسو) ذلك، وليس بحسن نية طبعا، فلقد كان لا يريد التورط في الأعمال المفوضية التي كُلف بها (ماسو)، وكان يعارض بوضوح اشتراك وحدة حفظ الأمن بالجزائر العاصمة، فهو يرى أنه يجب عليها أن تبقى مستعدة من أجل العمليات الخارجية وفقا لطبيعتها، وهذا ما كان يفرض إبقاء قيادة قوات هذه الوحدة سالمة، وكانت مستقرة في (حيدرة)، في الضفة الغربية بالجزائر العاصمة، وهكذا وجد (ماسو) نفسه وحيدا.

لقد كنا أنا و(غودار) نعرف بعضنا جيدا، و لم تكن علاقاتنا حسنة منذ اليوم الذي خلفني فيه عام 1948 على رأس (الصدمة 11) الذي قمت أنا بإنشائه من قطع مختلفة، بل يمكن لي أن أجزم أنه قام بمؤامرة لأجل أن يخلفني، لكن هذا الاستخلاف كان سيء العاقبة، وذلك أنه كان يريدني أن أكون نائب قائد ووعدني

بترقية سريعة، غير أنه "لا يمكنني أن أكون مأموما في نفس الموضع الذي كنت فيه إماما"، وهذا كان - تقريبا - هو جوابي.

عند وصولي إلى (مون لوي) عام 1946، قمت بجمع خمس وثلاثين من قدماء محاربي "فرنسا الحرة" الأقوياء، ولم يكونوا في الظاهر سوى جماعة من غريبي الأطوار، ولكن سنتان بعد ذلك، تركتُ لـ (غودار) وحدة تضم ثمانمائة وخمسين من الجنود الأصفياء.

غير أن أسلوبه العسكري الساحر لم يكن قطُّ هو نفس أسلوبي، ولهذا قام أربعة ضباط من المصلحة (29) اللذين أُعيروا للكتيبة وتأسفوا من أجل الروح التي نفختها في (باغيرا)[15] - خليط دقيق بين الفوضى والنظام، وبين حياة التسيب والصرامة - بالتخلي عن عملهم عندما قدم هذا القائد الجديد الذي لم يفهم - مثلا - بأن أحد قدماء المصالح الخاصة التابعة للملكة البريطانية حافظ على دلال الوقوف والاستعداد على الطريقة الإنجليزية، بأياد منقبضة، وأن أحدا آخر يقدم إلى المدينة وهو يمتطي دراجة من نوع (هارلي دافيدسن) رفقة إحدى الجميلات التي تجلس خلفه، أما أنا فكنت أسمح بهذا النوع من الجنون، بل يمكن القول بأني شجعته أيضا، ولهذا يعدّونني أصيلا وغير متصنّع. أما بالنسبة للأغبياء، فلم أكن غير إنسان مثقف، بمعنى أنني أجمع بين الشذوذ الجنسي والشيوعية ومعارضة الجيش!

لم أتمكن من قول "لا" لـ (ماسو) لأني كنت بين خيارين اثنين: إما أن أقبل، وإما أن أغادر الجيش، وكانت مغادرة الجيش تعني مغادرة المصالح الخاصة، أي التراجع عن مبدأ من مبادئي، وكان هذا يعني "الخيانة" أيضا.

وركبت سيارة "جيب".. وتوجهت نحو الجزائر العاصمة رغما عني.

[15] هو اسم الفهد الذي ذكره الكاتب (كيبلينغ) في قصته الشهيرة "كتاب الغابة".

المهمة

تم تعييننا أنا و(ترانكيي) في نفس الوقت، واختارنا (ماسو) من أجل روحنا العسكرية العالية واحترامنا المطلق للنظام، وكان هذا غريبا نظرا لأننا كنا - معا - غير محافظين، وكنا نُظهر استقلالية نفس كبيرة، ولكن ماسو كان يعلم أننا لن نخونه، وكان هذا هو المهم في الأمر، وهو محق في ذلك، إضافة إلى أننا كنا - (ترانكيي) وأنا - على تفاهم ووفاق تام.

وقابلت (ماسو) في يوم 8 يناير دون نشوة تُذكر، كنت أتساءل حينها ما الذي يحدث لي، ووقع في نفسي أن مستقبلي العسكري قد تحطم فعلا، ولكنني خضعت لـ (ماسو).

كان (ماسو) يبلغ من العمر خمسين سنة، ذا قامة طويلة وشخصية متميزة، وكان قائدا كبيرا وهو يعلم ذلك، وهذا ما أداه إلى أن يُبدي حرية زائدة عن اللزوم في النظام العسكري.

وعند تخرُّجه من (سان سير)، تم تحويله إلى المغرب أين شارك في (حرب الريف) في معارك جبل (سارحو)، ثم ساهم في (حملة تحرير فرنسا) مع وحدة (لوكلير)، وقام باسترجاع (هانوي) في الهند الصينية يوم 19 ديسمبر 1946، وفعل ذلك بقوة كبيرة إلى درجة أن (باو داي) طالب بإرجاعه إلى فرنسا، لقد قام بتنظيف المدينة بالقنابل و لم يكن فيها سجناء - حسب علمي.

كان (ماسو) حيويا ولا يجامل أحدا، وعندما صار على رأس الوحدة العاشرة للمظليين، كنا نعلم أنه سيلجأ إلى استعمال القوة إذا كان ذلك مفيدا.

كانت علاقاتنا حسنة، ولكنها لم تكن أبدا خاصة، وكان يمكن لعلاقتنا أن تكون أكثر خصوصية لو أخبرته بأنني التقيت زوجته عندما كنت طفلا.

عندما كان أبي نائب محافظ - وكان رقيبا في الحرب العالمية الأولى - تواجد تحت إمرته جندي يُدعى (هنري توريس) الذي صمم على تلقين مسؤوله الأول درسا لن ينساه، واستطاع الرقيب إقناعه بعدم فعل ذلك بلطافة.

وبعدها، فقد (توريس) أباه، وقام (فرانسوا أوساريس) بإعطائه تسريحا وكذا بعض المال لكي يتمكن من شهود الجنازة.

والتقيا بعد ذلك في باريس. كان أبي حينها رئيس مكتب وزير البريد والمواصلات، وكان (توريس) أحد أقطاب المحاماة، وصارت لقاءاتهم من ثَمَّ منظمة، وفي يوم من الأيام قدم (توريس) عندنا ليقدّم لنا خطيبته، (سوزان روزمبير).

وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية، اضطرت (سوزان) و(هنري توريس) - يهوديّا الأصل - إلى الذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وتجندت السيدة (توريس) بعد ذلك في قوات (فرنسا الحرة) وصارت برتبة قائد، وهذا مكّنها من الاعتناء بنساء وحدة (لوكلير) واختير لها لقب (توتو).

وبعد طلاقها، التقت (ماسو) في (سايجون)، وأصبحت بعد ذلك زوجته.

عندما دخلتُ مكتب (ماسو) قلتُ له دون مداهنة - لأنه لم يكن لديّ شيء أخسره:

- حضرة الجنرال، أُفضّل أن أقول لك بأنني لم أكن متطوعا من تلقاء نفسي لهذا العمل، فهو لا يعجبني.

- أعرفُ ذلك، وهذا يدل - على الأقل - أنك على دراية تامة بما ينتظرك، وهذا أحسن لأننا سوف نربح الوقت، اعلم ببساطة بأنك رجل الموقف، ولهذا اخترتك. إن جبهة التحرير اليوم تُحكم قبضتها على الجزائر العاصمة، وتقوم بإشعارنا بذلك كل يوم، كما تقوم بإشعار العالم كله. إن جبهة التحرير لا تُحكم قبضتها على العاصمة فقط، بل إن أبرز زعمائها يُقيمون فيها، وكل الناس يعرف

ذلك، لهذا سوف نقوم بتصفيتهم بسرعة وبكل الوسائل والطرق، إن هذا أمر صادر عن الحكومة، وبما أنك لم تكن متطوعا فأنت تعلم أن هذا ليس عمل أطفال.

وركبت مع (ماسو) في سيارته من نوع (بيجو 403) وقمنا باجتياز العاصمة بسرعة، لقد كانت مدينة رائعة وحيوية، فهي تحوي قرابة مليون ساكن، وكانت الوضعية الديموغرافية فيها على العكس تماما مما هو موجود في باقي الجزائر، فالمسلمون فيها أقلية مقارنة بالأقدام السوداء.

وعندما وصلنا إلى المحافظة، أراني الجنرال المكتب الذي وُضع تحت تصرفي قرب مكتبه.

ولكي يُسدل عليَّ غطاء إداريا، قام بإعلام العمال بأن النقيب (أوساريس) هو المكلف بالعلاقات بين الجنرال ماسو ومصالح الشرطة والقضاء، وهذا يعني بوضوح أنه عليّ أن أربط علاقات جيدة مع أعوان الشرطة لأتمكن من استغلالهم حتى لا نجد أنفسنا في مواجهة العدالة. وبعد ذلك أخذني جانبا وقال بصوت خافت:

– (أوساريس)، يجب أن تعرف شيئا لا أحد غيرك يعرفه، لقد تلقيت زيارة من الأقدام السوداء الأكثر تأثيرا في المجتمع العاصمي والجزائري، إنهم أناس جد مصممين وأخبروني بأنهم سيحلون محل قوات حفظ الأمن إذا واصلت في إظهار عجزها عن مواجهة الموقف المتردي. إنهم يريدون بدء عملية استعراضية، وبالنسبة لهم فإن المحور الجغرافي لمنظمة جبهة التحرير هو القصبة، ولم يُخطئوا في ذلك. إن القصبة تتواجد فوق منحدر، وهناك نهج واسع في أعاليها، وهم ينوون جمع شاحنات تحمل المواد الملتهبة، ثم تقف الشاحنة الأولى لحين تجمُّع الشاحنات الباقية، وفي تلك اللحظة يفتحون الخزانات، وعندما يُغرق الوقود القصبة، سيقومون بإضرام النار فيها. وتبعا للتقديرات التي أجريتها، فسيكون هنالك حوالي سبعين ألف قتيل. إن الذين أخبروني بهذا عندهم وسائل لتنفيذ سياساتهم. إن المنحى الذي

تنحوه جماعة الأقدام السوداء يضطرني إلى اتخاذ الأمور بحزم كبير، هل تفهم؟ إنهم لا يمزحون، وهذا سيكون قاسيا، لهذا يجب أن نترع الرحمة من قلوبنا.

كان مصطلح "انتزاع الرحمة" يعني القيام بالتعذيب واللجوء إلى الاغتيالات، وطأطأت رأسي - دلالة على الانهزام - وقلت:

- فهمت حضرة الجنرال.

- نحن مهددون بإضراب تمردي يوم الاثنين 28 يناير.

- ولماذا هذا التاريخ بالذات؟

- هناك جمعية عامة تعقدها هيئة الأمم المتحدة في نفس اليوم، وتوجد بعثة من طرف جبهة التحرير سوف تحضر أشغالها لتحاول إثارة نقاش حول القضية الجزائرية. بطبيعة الحال ستحتجُّ فرنسا وتؤكد عدم أهلية هيئة الأمم المتحدة للنظر في مثل هذه القضايا، لكن هذا الإضراب هو طريقة لإظهار تواجد جبهة التحرير وتأثيرها.

- وماذا عليّ أن أفعل؟

- أن تكسر الإضراب، ولديك أقل من عشرين يوما.

- وكيف تريدني أن أتصرف؟

- قم بتوقيفات واستدع الفاعلين.

- ولكن، كيف يمكن لي أن أعرف أولئك الذين يجب عليّ إيقافهم؟ إن إنشاء شبكة استعلامات يأخذ شهورا كاملة!

- عليك الاستعانة بملفات الشرطة.

- وفي أي مصلحة من مصالح الشرطة؟

- أنت مكلف بالبحث عنها، كل ما أعرفه هو أن الشرطة تحوز ملفات سرية ستُعينك في أداء مهمتك.

- وهل تظن أنهم سيوافقون على إعطائها لي؟

- تدبّر أمرك، إن هذا هو عملك الآن.

عندما حدثّني (ماسو) عن نوايا الأقدام السوداء الذين يريدون تنفيذ (سان بارتيليمي)[16] جديدة، استطاع القضاء على تحفظاتي الأخيرة، وعزمت على إعانته حسب جهدي وطاقتي، ومهما كانت النتائج المترتبة على ذلك.

وعندما أردت الخروج من مكتبه ناداني ثم قال:

- آه، تذكّرت، هناك جريدة سرية ضد الجيش تسمى (صوت الجندي)، وتأمل الحكومة في باريس التعرف على محرري هذه النشرية، وهي **تودُّ كذلك** أن يتوقف هذا "المنديل" عن الصدور نهائيا، مفهوم؟

- فهمت، حضرة الجنرال.

لم يكلمني (ماسو) عن مدة هذه المهمة، وكان تحويلي لا يجب أن يتعدى مدة ستة أشهر، وكنت أظن أن كل شيء سوف يُحلُّ قبل ذلك.. بضع أسابيع على الأكثر.

لم تعُد شبكة الاستعلامات التي نسجتها في سكيكدة لتنفعني في هذه المدينة الكبيرة، ولم يكن لديّ سوى اتصال واحد مع الشرطة.. المحافظ (آرناسان)، حيثُ عُيِّن القائد السابق للاستعلامات العامة بسكيكدة في الجزائر العاصمة، وكان هو همزة الوصل بيني وبين زملائه.

وفكّرتُ بسرعة في الذين يمكنهم إعانتي من خارج قسم الشرطة مثل قائد الأمن العسكري وكذا مراسل المصالح الخاصة.

وكنت على اتصال دائم مع الاحتياطيين التابعين للمصلحة، حيث كنا نساعد بعضنا بعضا في أكثر من مناسبة، بل إنني التقيت (مورلان) في الجزائر العاصمة رفقة العقيد (جيرمان)، أحد العملاء الذين بدأوا لتوهم في العمل هنا.

---

[16] هو الاسم الذي أُطلق على مذبحة استهدفت البروتستانتيين بباريس ليلة الاحتفال بعيد القديس (بارتيليمي) أحد الحواريين الاثني عشر وفق أدبيات الإنجيل، وتمت بأمر الملك (شارل التاسع) في 24 أغسطس 1572.

وشرع جهاز المصالح الخاصة في الحوم حول العاصمة منذ اعتــراض الجنــرال (لوريُّو) لأنه لم يفهم سبب منع المصالح الخاصة من مزاولة مهامها بالجزائر.

لقد كان فريق (الصدمة 11) يمثل فرقة التدخلات الخاصة الموضوعة تحت أوامر العقيد (دوكورس) الذي كنت أعرفه جيدا نظرا لعملنا المشترك في الهند الــصينية، وكان أغلبية إطارات هذا الفريق قد مرت على مركز التوجيهات للمكلفين بالمهام التي قمت بتسييرها، غير أن (الصدمة 11) لم يكن يتدخل إلا بانتظام مــن أجــل صنع حقائب مفخخة موجهة لــ "الفلاقة"، أو لتأطير أعضاء من الحركة الوطنيــة الجزائرية التي أنشأها (مصالي الحاج)، والتي لم تتوان جبهة التحرير عن اغتيال آخر مخلصيها.

وحاول (مورلان) كذلك إنشاء مصلحة عمليات في البحر الأبــيض المتوســط انطلاقا من (طنجة)، ويديرها قاطع الطرق (جو آتيا)، أحد الضباط القدماء التابعين لــ (بييرو لوفو).

لكن (جو آتيا) لم يكن مقنعا أمام الضابط المفاوض (بوب مالوبيي)، وذلك أن المهمات القليلة التي كلف بها في المغرب غالبا مّا باءت بالفشل، وبعد ذلك انتهت الحكاية بفضيحة كبيرة.

وهكذا، حتى وإن لم أكن على وعي كبير بوضعيتي حينها، فإنني أصبحت رجل المصالح الخاصة في (معركة الجزائر).

المحافظة

زوّدني (ماسو) بمعاون ظريف ومتمرس يدعى الملازم الأول (جيرار غارسي)، وكان هذا الضابط أحد مساعديه، غير أنهما وقعا في سوء تفاهم من أجل حكاية "جمبري" تالف نُسي في الثلاجة.

قبل أيام من ذلك، أراد (ماسو) – العائد من مصر – الترفيه عن نفسه بالذهاب إلى الصيد، وأرسل معاونه للبحث عن "جمبري" كي يحضّر به طعما لاصطياد الأسماك.

ولما ذهب (غارسي) للقيام بذلك، اتصل الجنرال (سالان) بـ (ماسو) وكلّفه بمهمة جديدة، ثم قام بإرساله إلى الوزير (لاكوست). ولدى عودة (غارسي) عند (ماسو) بعد أن تمكن من الحصول على الطعم بصعوبة بالغة وكان متشوقا للذهاب إلى الصيد، وجد المترل خاويا.

كان اختفاء الجنرال يعني إلغاء برمجة الصيد أساسا، دون أن يتكفل أحد بإعلامه بأي شيء. فاضطر (غارسي) تحت وطأة الضجر إلى التخلص من الطعم الذي أحضره بإخفائه داخل ثلاجة (ماسو).

وبطبيعة الحال، بدأ طعام عائلة (ماسو) يأخذ طعما غريبا تدريجيا، وكان حلق (ماسو) وأنفه أكثر تحسُّسا من حلق وأنف زوجته، فقال:

– ولكن يا (سوزان)، ألا تجدين أن هذا اللحم له طعم غريب؟ بل وحتى الخضر كذلك!

– (جاك)، أنت فعلا صعب المراس، هل تخشى أن نقوم بتسميمك؟

غير أن الجنرال لم يتحمل ذلك واتجه بسرعة نحو المطبخ، وعن طريق الشم اقترب من الثلاجة، واكتشف ما قام به مساعده. ونال (غارسي) توبيخا على فعلته، وثأر من ذلك باختلاس صندوق يحتوي خمرا رائعا أحضره خصيصا من

مصر لهذا القائد "الجاحد" - لكن المحترم، وهكذا وجد هذا الصندوق مستقره في مكتبنا كي يساعدنا على التحمل في أقسى الليالي وأحلكها.

كان عليّ أن أشرع في القيام بزيارات بروتوكولية، وكان بعضها يتم رفقة (ماسو).

وقادتنا الزيارة الأولى إلى محافظ المنطقة (سارج باري) الذي أظهر لنا ودا واستعدادا للتعاون.

وبعدها توجهنا نحو الأمين العام للمحافظة، (بول تيتغن)، وكانت سلطات الشرطة التابعة لمحافظة الجزائر العاصمة قد عادت إليه منذ أربعة أشهر. وعُرف (تيتغن) عند (ماسو) وكل المظليين بأنه الرجل الذي طرد الجنرال (فور) من الجزائر.

كان (فور) وطنيا، ولكنه رفض التحالف مع (ديغول) أثناء الحرب، بل أكثر من ذلك، لقد ذهب إلى لندن شخصيا حتى يقول له ذلك بنفسه.

ولما رأى (فيشي) طبيعته المعادية للألمان، أرسله إلى المغرب حيث أصبح مديرا للشبيبة هناك.

وبعد اجتياح التحالف سنة 1942، شارك في تأسيس الوحدة الأولى للمظليين انطلاقا من وحدات جنود المشاة، وشغل في الجزائر منصب قيادة في الفرق الجبلية.

وكان (فور) يرى أن السياسة العسكرية الفرنسية ضد التمرد ينقصها الحزم والشدة، و لم يكن هو الوحيد الذي يعتقد ذلك.

وعندما علم (بول تيتغن) بهذا الموقف، احتال حتى وضع مسجلا في مكتبه، ثم دعاه وجرّه إلى الكلام بعد أن قام بتشغيله.

لقد كانت الأشرطة رديئة التسجيل، ولكن (تيتغن) أعاد صياغة محتواها وأرسلها إلى باريس مع طلب أن يتم استدعاء (فور) ليُوقف ويجُرّد من منصب القيادة بتهمة "المؤامرة"، وهذا ما حصل فعلا.

غير أن الواقعة سرت في كل المواقع العسكرية، فإذا بـ (تيتغن) يجلب على نفسه مقت كل العسكريين الذين لا يُعجبهم إطلاقا أن يلجأ عضو من المحافظة إلى استعمال وسائل دنيئة ضد ضابط مَّا.

واستقررنا قرب مكتب (تيتغن) الذين لم يصل بعد، وأراني (ماسو) الخزانة التي حوت المسجل، وغمغم بمكر قائلا:

- انظر، هذا هو مكتب "المسجل"، انتبه وراقب كل ما تتلفظ به.

كان اللقاء مع الأمين العام لطيفا، غير أنه جرى دون حرارة تُذكر، ولم يتصور (تيتغن) ولو للحظة واحدة طبيعة مهمتي الحقيقية، واتفقنا على الطريقة التي يتم بها إجراء عمليات التوقيف، وكان واضحا أن العدالة كانت ستغرق جراء ذلك.

ومن جهة الأشخاص الذين نقوم باستدعائهم، فإن المحافظة ستأخذ إجراء إداريا استثنائيا: دعوة المثول التي توقّع من طرْف (تيتغن) وتضفي على عملنا صبغة شرعية.

وبما أننا كنا نتوقع إجراء توقيفات عديدة، فإننا كنا نعلم أن السجون لن تكفي لهذا الغرض، ولهذا تم تقرير إنشاء معسكر "للانتقاء" في إحدى المدارس القديمة في ضواحي العاصمة، في المكان المسمى (بني مسوس). ومن ثَمَّ، يُحوَّل المدعوون إلى معسكرات أخرى مهيأة لذلك في الجنوب، وكان أشهرها معسكر نصب في مدينة عين وسارة.

ومن أجل تسيير معسكر (بني مسوس)، عَيَّن (تيتغن) أحد محافظي الشرطة الذين كانوا من قدماء المحامين، يدعى (شارل سيكالدي ريِنْو)، وأعانه في ذلك ضابط الشرطة (ديفيشي).

وقرر (ماسو) الذي كان يحتاط من (تيتغن) أن تتم حراسة المعسكرين من طرف جنود عسكريين، وعين لذلك كتيبة متكونة من الشباب المؤدي للخدمة العسكرية.

قادني الجنرال بعد ذلك إلى اجتماع يحضره قواد الوحدات وقواد المناطق، ومن بينهم الجنرال (دي بولارديير) والعقيد (آرغو)، وخطب (ماسو) طويلا، وكان من جملة ما قاله:

- أيها السادة، يجب أن تنتزعوا ليالي الجزائر العاصمة من جبهة التحرير.. يجب أولا أن تعلنوا حظر التجول وبعده أطلقوا النار دون إنذار على كل من لا يحترمه.. أعتمد عليكم لتكونوا جاهزين أربعا وعشرين ساعة على أربع وعشرين.

وحينها قال (آرغو):

- لا حضرة الجنرال، فقط ثلاثا وعشرين ساعة وخمسا وأربعين دقيقة، وأطلب منك ربع ساعة فقط من أجل الراحة.

وانفجر الضباط ضاحكين.

ولم أر (دي بولارديير) بعد ذلك في أي من الاجتماعات، وذلك لأنه أبدى تحفظاته على الطرق والوسائل المستعملة من طرف الوحدة العاشرة للمظليين في الجزائر العاصمة، وقام بتصريحات عدائية فيما يخص استعمال التعذيب، ولا أظن أن ذلك كان السبب الوحيد لهذا العداء المفاجئ الذي أبداه (دي بولارديير) تجاه (ماسو)، لقد كنت أعرف (بولو) جيدا بما أنني كنت في سنة 1951 في الهند الصينية مساعده ونائبه في كتيبة (كوشينشين)، وكان يقال إنه توجد بينه وبين (ماسو) منافسة شخصية ترجع إلى سقوط (هانوي) في عام 1946.

توجهت في نفس اليوم نحو المحافظ (آرناسان) الذي أكد لي وجود الملفات الغامضة التي حدثني عنها الجنرال، وكانت تحوي قرابة ألفي اسم من أسماء مسؤولين في جبهة التحرير في منطقة العاصمة وضواحيها، وقامت بإنشائها مصلحة الاستعلامات العامة بالوسائل المتاحة لديها، وهذا ما منع من استغلالها.

ووضع (آرناسان) الملفات تحت تصرفي لأقوم بنقلها عن طريق ضباط قيادة القوات التابعة للمحافظة لأنها كانت أداة ضرورية لكي أشرع في العمل، وكانت هذه الملفات تكتمل مع الإيقافات والاستنطاقات.

وأوصى (آرناسان) زيادة على ذلك كلّ زملائه بي خيرا، ومن بينـــهم المحـــافظ (بارا) الذي كان على رأس الشرطة القضائية، واستعدت بذلك نظام زياراتي بنفس الحدة التي كانت عليها عند وصولي إلى سكيكدة قبل سنتين من ذلك.

وكان الكثير من محاوريّ يستغلون فرصة كوني معهم لمعرفة الأهميـــة الحقيقيـــة لـــ (ماسو)، وذلك أن وضعية "الجنرال المحافظ" كانت غامضة، وكانت أعماله - غير المعهودة - تأخذ نصيبا من هذه الغرابة أيضا، وكنت أُســـأل في كـــثير مـــن الأحيان:

- في أي درجة بالضبط تضع جنرالك؟

- في الأعلى.

- نعم، ولكن ما هو حسبك المستوى الذي يكون فوقه في العلو؟

- إنها الحكومة.

- الحكومة العامة؟

- لا، إنها حكومة الجمهورية الفرنسية.

وكانت هذه هي الحقيقة بعينها، ولهذا كانت المهام التي كلفني بهـــا (ماســـو) تكتسي أهمية كبيرة.

واتصل بي كثير من الأقدام السوداء المرموقين. لقد كان هذا "المستوى العـــالي" الذي أصبحنا فيه يُدهشهم ويُثيرهم، وخاصة لما علموا أن رجال كتيـــبتي بمنطقـــة الشبلي يقيمون في إحدى الفيلات التي يملكها (روبر مارتيل) ـــ وهـــو أكثـــرهم تأثيرا، بل إن (مارتيل) نفسه كان يقابلني ويساعدني كثيرا.

ولكنني لم أقتصر على هذا الجانب فقط، بل احتفظت بعاداتي التي داومت عليها في سكيكدة، وتعرفت على التجار، وبالأخص أصحاب المقـــاهي والمطـــاعم، ولم يكن ذلك شيئا مزعجا بل كان جد مساعد.

وكنت أرى كثيرا (بيتري) الذي كان يقوم بتسيير (جزيـــرة الجمـــال) قبالـــة المحافظة، وكان جاره الحلاق مساعدا ثمينا، تماما مثل (غيـــوم) الإيطـــالي، أحـــد

المقاومين القدماء، وكان مالكا للـــ (سينترا)، حانة فندق (أَليتِّي)[1] ، وهو لا يزال يرتدي ربطة عنق خضراء.

تم تطبيق نظام حظر التجول الذي قرره (ماسو) بسرعة، ونفـــذت الــدوريات الأوامر وأطلقت الرصاص على كل من خرق هذا الحظر. وكنا نترك القتلى في عين المكان، لأنه لم يكن لدينا الوقت الكافي للتكفل بهم، ثم إن بقاءهم في الأحياء لكي يُشاهَدوا وهم جثث هامدة كان كفيلا من أجل إضفاء المصداقية على الأمر كله.

كان يجب على المظليين أن يكونوا في قلوب الجزائريين أكثر مهابة من جبهــة التحرير، وكانت الاغتيالات المنفذة في طرقات العاصمة تُظهر عزم الحكومة الـــتي كنا ذراعها المسلح.

وكانت المشاهد جدّ مؤثرة لدرجة أن البلاغات بدأت تصلنا بغزارة بعد يـــوم واحد من ذلك، وأظهرت الوحدات الأربع نشاطا كبيرا منذ الأيام الأولى. ففي ليلة 15 إلى 16 يناير 1957 مثلا، قامت الوحدات الأربع بتمشيط القصبة واستدعت آلافا من المتهمين، وفي عز النهار كانت الدوريات تقوم بحماية المناطق الحساسة.

وعندما دخلت الوحدة العاشرة للمظلـــين إلى العاصـــمة، أســـكنتني الإدارة العسكرية في بيت متواضع، أما العقيد (ماير) وزوجته فأقامـــا بأحـــد المـــساكن الواسعة في الحي الراقي بالعاصمة، قرب فيلا (سيزيني)، وبما أنني كنت أنا و(فولك) نعيش بمفردنا، فقد اقترحا أن يؤويانا.

غير أن هذا التعايش بين ثلاث رجال وامرأة أطلق العنان للثرثرة والهذر، وقـــام أحد قواد الوحدة الأولى للمظليين - وكان واضحا أنه وقع في هـــوى (مونيـــت ماير) - بفعلة مضحكة وغير مبررة. ولم أكن في الحقيقة أقضي في مسكن (ماير) إلا القليل من الوقت، وكنت أذهب إليه في الصباح أحيانا لأرتاح.

---

[1] فندق " السفير " حاليا.

كان عليّ أنا و(غارسي) أن نُنشئ تنظيمنا الخاص، وقمت لذلك بزيارة (غودار) من أجل الحصول على سيارة، ورأى في تلبية طلباتي تشريفا له، لدرجة أنني طلبت منه سيارة أخرى لوحدتي.

وهكذا سُلمت لي سيارة (جيب) مع سائق من طرف الوحدة الأولى للمظليين، وبعد ذلك قام أحد الملازمين باسترجاع سيارة فخمة غنمت من أحد "الفلاقة" الأغنياء.

كان علينا كذلك الإسراع في تشكيل وتدريب فرقة من أجل الإعانة. وقام (غارسي) بتعيين بضعة وعشرين صف ضابط مرسم قادمين من مختلف الوحدات، بما فيها وحدتي، وحوّلت بأمر إلى مركز قيادة الفرع، لقد كانوا ينتظرون تحويلهم إلى وحدة أخرى غير مظلية، وبما أنهم كانوا عاطلين طلبت من (ماسو) تحويلهم إليّ، ووافق على ذلك بشرط أن يوافق المعنيون أنفسهم.

وقمت بتجميعهم من أجل أن أشرح لهم بأنهم إن وافقوا على العمل معي، فإنهم سيلجأون إلى القيام بأعمال وحشية، وبأنه ليس لديهم ما يأملونه من هذه المهمة المؤقتة التي سوف يغادرون بعدها وحدات "المظليين". ووافق الجميع على اتباعي، وكان اثنان منهم مجبران على ذلك نوعا ما، وهما المساعد الأول (بارا) والرقيب الأول (فونتان)، وذلك لأنهما تورطا في شجار مع مدنيين في سكيكدة، وقمت بتجنيبهما المتاعب بتدخلي لدى (مايير).

وكان (أندريه أورسوني) من بين أفراد الوحدة كذلك، وهو رجل متكتم تمت مكافأته بميدالية الشرف، وهو شيء نادر في أوساط ضباط الصف، مما يوحي بأن المعنيّ قام ببطولات خارقة.

وأذكر كذلك (آفيرينوس)، أحد الجنود ذوي الأصول اليونانية.

وانضاف إلى القائمة (باباي)، أحد "الفلاقة" القدماء من جنوب قسنطينة، وكان ضخما. لقد تم إلقاء القبض عليه في الأوراس من طرف رجالي بسكيكدة عندما كنت في المستشفى.

كان (باباي) متخفيا خلف صخرة وهو يدافع عن نفسه ضد المظليين مثل الأسد الضاري، وكان بعيدا لدرجة لا يمكن معها استعمال الرمّانات من أجل الإجهاز عليه. وعندما نفذت ذخيرته، خرج من مخبئه رافعا يديه.

واستغرب المظليون، وقال بعضهم:

- ولكن.. هذا (باباي)[17]، ما الذي يفعله هنا؟

وعند استنطاقه، وجده رجالي ظريفا جدا. لقد قدم من منطقة بسكرة أين كان الكثير من الإفريقيين يعملون فيها كمدلّكين في الحمامات، وكانوا يعاملون - تقريبا - مثل العبيد.

وتم استنطاقه:

- لماذا أنت مع "الفلاقة"؟

- لم يسألوني عن رأيي؟

- ألا تريد الالتحاق بنا؟

- لماذا لا، أنا لا أبالي بهذا.

وعمل (باباي) معي طوال معركة الجزائر.

كنت في عملي أستخدم مراسلين، وجعلت أحدهم يخترق جبهة التحرير وأصبح عامل اتصال مع (ياسف سعدي)، وبفضل هذا العميل - بعد رحيلي - تم إلقاء القبض عليه، وهو ما أدى إلى موت (علي لابوانت) ونهاية معركة الجزائر.

وكنت في بعض الليالي أغيب دون تفسير أو تبرير، وكان (غارسي) يُشرف على إدارة الوحدة.

ولم يكن أحد من الفريق يعلم أنه كان لديّ فريق ثان متكون من (بيير ميزيري) و(موريس جاكيه) و(إيف كوومو) و(زاميد) المعلم.

وكان استعمال فريقين لا يتعارفان فيما بينهما يعتبر ضمانا في حالة ما إذا حاولت جهة مَّا التحقيق في تحركاتنا الليلية الغريبة.

---

[17] أي رجل أسود.

ألفا فهد

كان النظام الذي أنشأه (ماسو) في البداية خاضعا للارتجالية، ولكنه سرعان ما شق طريقه نحو التخطيط المنظّم.

ومكنني استغلال ملفات (آرناسان) من جرد قوائم متهمين وإجراء توقيفات كثيرة. وكانت الاستنطاقات تقودنا إلى أسماء جديدة، فامتزج ملفي الخاص بمعلومات أخرى، خاصة معلومات (روجيه ترانكيي). وكان ولع هذا الضابط بالحقبة النابليونية مفيدا جدا في هذه المهمة الجديدة.

كان يقول إنه دهش وهو يعلم أنه من أجل إدارة المدن التي احتلها، شرع (نابليون) في الاعتناء بترقيم المنازل وإحصاء السكان، وقام (ترانكيي) بتجسيد نفس الطريقة بالجزائر العاصمة.

وأوكلت هذه المهمة لأعوان الشرطة والدرك ووحدات أخرى، وأحيانا لرجال متشكلين من فرق أوكلت لهم هذه المهمة في إطار "فرع الحماية العمرانية" تحت مراقبة ضباط محوّلين إلى قيادة قوات المحافظة، وتم بذلك جرد قوائم اسمية لجميع السكان.

كنا نتوجه إلى أقدم ساكن كي يعطينا أسماء السكان الآخرين، وكانت هذه المعلومات تمتزج بتصريحات الجيران، وهكذا يصير كل غائب متهما إلى حين حضوره، وبمجرد عودته يخضع آليا للاستنطاق.

وكانت النتائج المتحصل عليها بعد مقارنتها بملفي الخاص تسمح للدوريات بإنشاء قوائم ذات مصداقية تسجَّل فيها أسماء الرجال المبحوث عنهم.

وقُسمت الجزائر العاصمة وضواحيها إلى أربعة أقسام، وأوكل كل قسم منها إلى وحدة من وحدات المظليين، وكانت وحدتي التابعة لـ (جورج مايير) مستقرة في منطقة الحراش، وكان القائد (آسيما) يشغل منصب ضابط استعلامات فيها.

ووضعت وحدة المظليين الغرباء تحت أوامر (ألبير بروتيي) ومساعده الملازم العقيد (جان بيير) الذي خلفه بسرعة، وكان القائد (فولك) المقيم بفيلا (سيزيني)

يشغل منصب ضابط الاستعلامات فيها، وكانت الوحدة الأولى للمظليين الغربـــاء خلفا للكتيبة الأولى للمظليين الغرباء المشكلة في عام 1948، والتي جُزّئـــت بعـــد الانسحاب في (كاو بانغ) في أكتوبر 1950.

وكانت الوحدة الثانية للمظليين تحت قيادة العقيد (ألبير فوساي فرنسوا)، وهو شخص جد عاطفي وإن كان لا يظهر ذلك. لقد كان طالبا في الأدب، وعمل في مجال النشر والطبع قبل التحاقه بالمصالح الخاصة أثناء فترة الحرب. وكان يقود أحد الكتائب الثلاثة لوحدتي في الهند الصينية، حيث كان ضابط الاستعلامات فيها هو الملازم (ديبار).

وخلف (فوساي فرنسوا) الملازم العقيد (شاتو جوبير) الملقب (كونان) الـــذي كان يقود الوحدة الثانية للمظليين أثناء عملية (السويس).

لقد كان ضابطا تكوّن في إنجلترا، وشارك في عمليات المظليين بفرنسا وهولندا، وكان في الهند الصينية معينا لـــ (بولارديير).

أما الوحدة الثالثة للمظليين، فإنها كان تحت قيادة المـــلازم العقيـــد (مارســـيل بيجار)، وكان معينه في ذلك القائد (جاك آلير) الـــذي شـــغل منـــصب ضـــابط الاستعلامات، وذاع صيت (آلير) – مثل قائده تماما – في معارك (ديان بيان فو).

وانضاف إلى كل ذلك فرقة من فرق مدفعية المظليين التي كانت تحـــت قيـــادة الملازم العقيد (بيران)، وكان معي في مصلحة العمليات، وكذا فرقة أخرى لتكملة الفريق.

وهكذا وُجدت أخيرا بنية أرضية كلاسيكية لمنطقة "الجزائر – الساحل" الـــتي كان يقودها العقيد (جان ماراي)، وفي نفس المكان يتواجد الفريق التاسع من فرق "الأهالي" تحت قيادة العقيد (بارجو)، وكان القائد (سيرفان) ضابط الاســـتعلامات فيه، وكانت جل عملياتهم تتركز في محيط القصبة، وهذا ما كان يخدمنا كثيرا.

وتقرر مع المحافظ (بارا) أن يُسند كل ضابط من ضباط الاستعلامات برجل من رجال الشرطة القضائية، وتم هذا دون صعوبة تُذكر، لأني عملت على أن ينسجم أعوان الشرطة والجنود العسكريون دون نزاع. وعند الخروج إلى الميـــدان. كـــان

أعوان الشرطة يلبسون لباس "الفهد" ولا يوجد ثمة شيء يميّزهم عن أصدقائهم العسكريين من الوحدة العاشرة، وكانت هذه الملابس "الفهدية" المصممة خصيصا من أجل المظليين في الجزائر رائعة، وقدمناها إلى الخياطين كي يُنقصوا من عرض السراويل، وجعلناها ضيقة لتواكب موضة ذلك الزمن، وكان هذا اللباس يُثير غيرة الوحدات الأخرى.

كان يجب أن تكون عمليات المظليين مرئية من طرف الشعب حتى نُحبط معنويات جبهة التحرير ونُطمئن السكان، وكان واضحا أن هذا اللباس قد ساهم في ذلك بشدة، وقامت كل وحدة بإرسال اثنين من ضباطها إلى المحافظة، وعلم السكان بذلك بسرعة، وصارت المعلومات التي بدأت تتدفق من أول يوم أكثر عددا ودقة. لقد كان هناك عدد كبير من المعلومات يخضع للفحص، وكنا نقوم كذلك بتبادل مثمر مع مصالح الشرطة.

كانت المعلومات الواردة إلينا تقوم على الوشايات غالبا، والتي كثيرا ما جاءت بسبب أحقاد شخصية، وأحيانا كانت لا ترد إلا بطرق غير مباشرة.

المعلومة الأولى التي وصلتني وجاءت عن طريق (هنري دامون) الذي عرفته في المصالح الخاصة كضابط من ضباط الحلفاء مثلي. وتم إلقاء القبض عليه من طرف ميليشيا (ريمس) وعُذّب، ولم يتمكن من فعل شيء غير الصراخ مثلما نُصحنا به، وهكذا نبّهتْ صرخاتُه رفقاءه الذين قضوا على فريق الميليشيا. وفي سنة 1946، قام (دامون) بمساعدتي في (بيزو) بمنطقة (لوار إي شار) عندما كنت أنشئ ملف الاحتياطيين في مصلحة العمليات، وقاموا بتحويلنا بعد ذلك إلى المركزية حيث استقر هو في قسم السياسة، وأنا في مصلحة العمليات، وكانت مكاتبه متواجدة بنهج (سوشي).

واكتشف حينها عملية تهريب للذهب ينظمها الاتحاد السوفييتي. وأياما بعد هذا الاكتشاف، قُتل اثنان من معاونيه، وبينما كان هو يصعد بهدوء سلالم محطة ميترو (رو دي لابومب)، وجد نفسه قبالة رجل مشهر رشاشه وأطلق عليه النار، وسقط (دامون) من السلالم واختفى في عربة ميترو ساقها الحظ إليه، ولكن سفاحي

ستالين كانوا يتبعونه. وبعد اختباء في الممرات وملاحقة في العربات، تمكّن من تنبيه زوجته من محطة تليفون باستعمال رمز اتفقا عليه مسبقا، وقال:

- لقد لطخت بذلتي الرمادية، أرسلي إليّ البذلة الزرقاء بسرعة.

وقررت المصلحة أنه من صالح الجميع أن يُغيّر (دامون) - زيادة على بذلته - الأجواء، وهكذا وجد نفسه في الجزائر.

وتخلى (هنري دامون) عن بذلته ليرتدي بدلها بذلة قائد قناصين، وعلق عليها نيشانه الخاص بالمظليين، لقد تم تحويله إلى واحدة من التنظيمات الرديئة التي كانت تنتشر في الجزائر العاصمة، وكان التنظيم الذي حول إليه تحت قيادة عقيد من مصالح الدرك.

في الأيام الأولى من المعركة، قدمت إحدى المسلمات إلى مكتبه من أجل الوشاية بزوجها الذي يقوم بصنع المتفجرات، لقد كانت تريد التخلص منه، ووضعت مقابل ذلك شرطا: إنها ستدلي بالمعلومات مقابل ضمان بالحصول على منحة الأرامل، واحتج (دامون) على ذلك ثم قام بزيارتي في المحافظة، ووافقتُ على ذلك الشرط، وتمت العملية عن طريق وحدة (بيجار) المسؤول بالمنطقة.

وتحصل (دامون) بعد ذلك على معلومة ثانية، وجاءت هذه المعلومة بطريقة أكثر غرابة.

لقد كان المكتب الذي حُوّل إليه يستعمل جنديا يجمع بين اللامبالاة والإخلاص، ليقوم بنقل البريد.

ومن أجل القيام بهذه المهمة، كان الجندي يأخذ سيارة (جيب) ويغيب غالبا عدة ساعات تحت حجة الازدحام في الطرقات أو عطل حدث في السيارة، وبما أنه كان يحوز على ثقة العقيد فقد كان يتجنب العقاب.

وفي يوم من الأيام، دخل هذا الجندي إلى مكتب (دامون) مرتبكا وهو يقول:

- حضرة القائد، يجب أن تزجَّ بي في السجن؟

- ولماذا؟

- لأنه عندما أقول لك بأنني تعطلت لأجل الازدحام في الطريق أو لأجل عطل وقع في السيارة، فإن ذلك لم يكن حقا. في الواقع، لقد كنت أقضي الوقت في المبغى.

- ومن أجل هذا تريد الذهاب إلى السجن؟

- لا، ولكن المبغى يتطلب مالا، وبما أنني زبون معروف عندهم قالت لي مديرته يوما بأنه يظهر أني لست من الأغنياء، وأنه يمكن لي أن أرتاد المكان مقابل إعطائها بعض الرمانات (المتفجرات)، ووافقتُ على ذلك، ولهذا أريد أن تزج بي في السجن، وكذلك هذه الـ ...

وفكر (دامون) للحظات، ثم أردف قائلا بهدوء:

- حسنا، سوف نرى بعد ذلك، في الوقت الحالي أغلق فمك ولا تُعد سرد هذه الحكاية وسوف تفعل ما آمرك به.

- والمبغى؟

- سوف تواصل ارتياده كما لو أن شيئا لم يحدث.

- ماذا؟ والمتفجرات؟

- سوف تواصل إعطاء تلك المرأة منها، وسوف أزودك غدا بمخزون جيد، ولا تقُل شيئا للعقيد، فهمت؟

وقال الجندي منتصبا والدهشة تعلو محياه كما الامتنان:

- أنا رهن أوامرك حضرة القائد.

لقد كان (دامون) ذكيا جدا ولم ينس شيئا من تدريبه البريطاني.

وهكذا قرر هذه المرة أن يستغل هذه المعلومات بنفسه دون إزعاجنا بذلك. وتوجّه مسرعا نحو إدارة الأجهزة وطلب مقابلة العقيد الذي كان يُشرف على مصلحة الذخيرة، وشرح له الموقف ثم طلب منه - تحت غطاء السرية - تزويده ببعض الرمانات، وبمساعدة ضابط برتبة مساعد أول مختص في الأسلحة زوده به العقيد، فكك (دامون) تلك الرمانات وعطّل - خُفية - النظام الخاص بإرجاء التفجير، بحيث جعلها تنفجر بمجرد نزع الحلقة منها، وأعاد تركيب تلك الرمانات

بعد أن أخفى ذلك بطبقة خفيفة من الطلاء. لقد كانت جبهة التحرير تعرف جيدا رماناتنا الهجومية، ولكي نتمكن من تغليط خبرائهم بالمتفجرات، فإنه كان علينا أن نستعمل مختصين محترفين.

ولم يكن يعني هذا التغليط قطع "المشغل" لأن ذلك شيء يُثير الانتباه، غير أن (دامون) لم يكن مبتدئا، ولهذا أتقن عمله بدقة فائقة، بل أضاف للجندي بضعة علب من الخراطيش، لقد كان يريد أن يقضي ذلك الجندي وقتا ممتعا. وفُككت الخراطيش لترع المسحوق الدافع من أجل انفجار الأسلحة التي تُطلقها، وكان هذا الفعل من أبجديات عملنا.

وبعد غد، استدعى (دامون) ذلك الجندي إلى مكتبه بحجة أنه سوف يعطيه رسالة مستعجلة، وزوده بما يكفي من الرمانات والخراطيش من أجل أن يشغل 48 ساعة من وقت عطلته التي منحها إياه، ثم قال له:

- يجب أن تعطي كل هذا دفعة واحدة إلى المديرة، أقم في المبغى الوقت الذي يلزم لذلك، ولا تجعل توزيعك متفرقا على دفعات، هل فهمت؟ وإذا انتهت الحفلة، ارجع بسرعة وأغلق فمك.

وقال الجندي فرحا:

- أمرك حضرة القائد!

وفي الأيام التي تلت ذلك، حدثت كوارث عديدة.

ففي باب الوادي، بقلب العاصمة، أخرج شخص إحدى الرمانات التي عطّل (دامون) نظام التوقيت فيها، ليرميها على جمع من الناس، غير أنه تمزقت أشلاؤه جرّاء انفجار تلك الرمانة على مستوى كبده.

وفي شاطئ من شواطئ العاصمة، حاول شخص إلقاء رمانة من نفس المصدر من النافذة المفتوحة لإحدى المنازل المطلة على الشاطئ، صوب مركز حراسة صغير كان متواجدا هنالك، وكانت النتيجة بترُ يده.

وبالنسبة لمديرة المبغى، فقد أُحضرت إليّ من طرف الوحدة التي كانت تعمل في مقاطعتها، وأمرت بقتلها.

كانت جبهة التحرير الوطني تحاول الثأر أحيانا، لكنها نادرا ما كانت تتجرأ الهجوم على المظليين، و لم يكن يمكنها في كل الأحوال إلاّ الضرب بعشوائية، وذلك أن جهاز استعلاماتها لم يستطع أبدا فهم الطريقة التي كنا نعمل بها، فكان يتعرض بالضرورة إلى رؤساء الوحدات الذين تظهر أسماؤهم في الجرائد. ولهذا مثلا، تم تنظيم عملية ضد (بيجار) في قلب الجزائر العاصمة، وكان القاتل يملك عنه معلومات سطحية: "رجل أشقر ذو عيون زرقاء، ضخم الجثة، ويعلق خمسة شرائط عسكرية فوق صدره". وفي اليوم الذي اقترب فيه من ضحيته، كان (بيجار) يتجول رفقة (مايير).. كانا بنفس الطول ويرتديان نفس الزي، ولهما نفس الشعر الأشقر ونفس العيون الزرق، بل وحتى نفس عدد أشرطة الرتبة العسكرية! وهكذا تردد "الفلاقة" نوعا مّا قبل أن يُقرر إطلاق النار عليهما معا، غير أن هذا التردد كان حاسما، فـ (بيجار) كان كثيرَ التدخين، وعندما لم يجد سيجارة عنده ولا عند (مايير) غيّرا فجأة اتجاههما ودخلا أحد الأكشاك، وانتظر القاتل خروجهما، وإذا بإحدى الدوريات تصل إلى نفس المكان.

وبعد قليل من ذلك، قامت فرقة من القتلة بإطلاق النار على أحد الضباط الذين كانوا يُشبهون كثيرا (بيجار).

غير أنه لم يتعرض أحد لي على الإطلاق. وذلك لأن اسمي لم يكن يظهر في الصحف، و لم أكن أُجري حوارات صحفية، وتجنبتُ المصورين. وكنت أتعمد تجنب الأضواء.

كنت أظهر في الصباح بمظهر البيروقراطيين، ويمكن القول إنني كنت التكتُّم نفسَه، وباستثناء محيط (ماسو) وعدد قليل من ضباط الوحدة العاشرة للمظليين، لم يكن أحد يظن أنني القائد الفعلي لجوقة الخوف المضاد.

وكنت لا أتكلف حتى عناء التسلح في الصباح، فلقد كنت أعرف في الهند الصينية القائد (كلوزون) جيدا، وهو "ظاهرة" قامت بقيادة كتيبة (الصدمة 1)، وكنت مأخوذا بكونه يردد في حضرة كتيبته أنه لم يكن محتاجا إلى التسلح، وكنت أفعل مثله.

وحتى في قيادة قوات الوحدة العاشرة للمظليين، كان هناك أنـــاس لم يفهمـــوا بسرعة مجريات الأحداث، لأن موقف (غودار) تركهم خارج النواة الصلبة للقمع، وهذا ما جعل الوضعية تُثقل كاهلهم.

وهكذا قال لي (ماسو) في أحد الأيام:

– هل تعلم أن (لومير) يشكو من عدم إشراكه في معركة الجزائر، ألا يمكن أن تجد له شيئا مًّا؟

وأجبت بطريقة تهرُّبية:

– سأفكر في ذلك حضرة الجنرال.

لقد كان (هنري لومير) يسيّر المكتب الثاني للوحدة، وكان يُعينــه في ذلـــك القائد (جان غرازياني)، وبما أن (غودار) رفض العمل مع قيادة القوات، فإنه كـــان يملك كثيرا من الوقت الفارغ.

وصادف ذلك أن قدم أحد العقداء المكلفين بالأمن العسكري إلى المكتب أياما بعد ذلك وقال مستاء:

– إن الأمر يتعلق برجال جبهة التحرير الذين تقومون باعتقالهم، يجب أن نقول – للأسف – إننا سنسمع عن بعضهم مرة ثانية، وسيكونون رجالا مهمين، هـــل تفهمون ذلك؟ لهذا يجب أن نكون حذرين. هل يمكن لكم إعطاؤنا القوائم الـــتي تحوي الأسماء مع الاستمارات؟

وتبادلنا أنا و(غارسي) نظرات الاستغراب.

وأجبته بابتسامة عريضة، ثم قلت له:

– بكل سرور حضرة العقيد.

وخطرت حينها ببالي فكرة.

عندما لقيت (ماسو) بعد غد، أخبرته بأنني وجدت عملا لـــ (لومير)، وذهبنـــا أنا (وغارسي) إليه من أجل أن نشرح له ما الذي عليه أن يعملـــه رفقـــة معينـــه (غرازياني) إذا أراد المشاركة الفعلية في المعركة، وقلت له:

– يُقال إن السأم أصابك، وتريد أن تقوم بخدمات نافعة، أليس كذلك؟

وأجاب:

- نعم، هذا صحيح.

- هذا جيد، عندي مهمة لك.

- رائع!

- إن هذا بسيط جدا، سنقوم بإحضار القوائم الكاملة للأشخاص الذين نعتقلهم، وسوف تقومْ بنسخها من أجل أن نُسلّمها للأمن العسكري، لكن عليك ألا تخطئ، فهناك عدة أنواع من المتهمين الموقوفين.

- وما هي هذه الأنواع؟

- هناك متهمون لا نحتفظ بهم، أتفهم أننا لا يمكن لنا الاحتفاظ بالجميع؟

- كيف ذلك؟

- لا نحتفظ بهم كسجناء.

- وأين هم؟

- إنهم ميتون.

- نعم، فهمت.

- ولكي لا تخطئ، اجعل علامة أمام الموتى، ولن نضع حرف (م)، هذا يثير الانتباه، سوف نضع حرف (أ)، مثل "أُطلقوا".. هل تفهم؟

- فهمت، ولكن ماذا نكتب أمام الذين أُطلق سراحهم فعلا و لم يموتوا؟

- سوف نضع أمامهم حرف (خ)، مثل "خُلّي سبيلهم".

وهكذا بقي (لومير) و(غرازياني) هادئين مدة انهماكهما بهذا العمل.

وأصيب (جان غرازياني) بإحباط لأن "الأعمال الإدارية" لم تكن تستهويه، وكان يُفضّل شيئا من العمليات الميدانية.

كان هذا المنتمي إلى الأقدام السوداء، وذو الأصل الكورسيكي، عسكريا ضمن وحدات الأمن في بريطانيا، وأُنزل في فرنسا، كما عمل في الهند الصينية كضابط في الكتيبة الثالثة للمظليين الاستعماريين التي جُزّئت بعد ذلك.

و لم تتمكن الأربع سنوات التي قضاها أسيرا في الفيتنام من تليين قلبه، وتم تحويله سنة 1956 إلى الوحدة السادسة للمظليين التي كانت متواجدة بالمغرب. وكان الحزب الشيوعي يملك بيتا جميلا في المغرب، غير أن قنبلة حولته إلى ركام، وقدم (غرازياني) شارحا بفخر لعقيده (رومان ديسفوسي)، بأنه هو الذي قام بذلك الفعل الجميل، وقطّب (رومان ديسفوسي) حاجبيه وطلب منه أن لا يعيد ذلك مرة أخرى.

ولكن الشيوعيين قاموا بإعادة بناء الفيلا، وأخذ (غرازياني) الأمر على أنه محاولة إثارة له، وهكذا قام بتفجيرها مرة ثانية.

وعلى الفور، اضطر (رومان ديسفوسي) إلى الاتصال بصديقه (ماسو) لكي يقوم بإرسال الضابط المشاغب إليه.

وهكذا تم تحويل (غرازياني) إلى المكتب الثاني، أين حُرم من العمليات، وصار فوق ذلك مصدر تعب لـ (لومير).

وقدم العقيد المكلف بالأمن العسكري بعد ذلك بفترة وجيزة ليقابلنا في المحافظة بمزاج قلق، وحاول (غارسي) الاختفاء ليتمكن من الضحك، وقال العقيد:

– أنا لا أفهم شيئا، لقد أحضر لي (لومير) و(غرازياني) قائمة أسماء، ولكني أظن أهما أصيبا بشيء من الجنون، فأغلبية المتهمين في القائمة قد سُجلوا بأهم "أخلي سبيلهم"، وأنا أسأل لماذا هذا؟ أضف إلى ذلك أن الذين لم يُخل سبيلهم قد تم "إطلاق سراحهم"! وطلبت منهم تفسيرا لذلك فعجزوا عنه، وقال أحدهما بأنك طلبت منهم أن يسجلوا "أُخلي سبيله" أمام كل الذين ماتوا، والآخر يقول بأنك طلبت منهم أن يسجلوا "أُطلق سراحه"، إن هذا ليس منطقيا.

وقلت له بجدية كبيرة:

– صدقت، إن هذا ليس منطقيا.. هناك سوء تفاهم.

البازوكا

في ليلة 16 إلى 17 يناير 1957، خرجت رفقة رجالي كالعادة، وخلال دوريتي توجهت نحو فيلا (سيزيني) مركز قيادة الوحدة الأجنبية الأولى للمظليين، وكان (بورنيول) هو المداوم وقتئذ، وكان هذا هو لقب الملازم الأول (جان ماري لوبان)، قائد إحدى كتائب القتال، وسبب تلقيبه بذلك هو إحدى الجنائز التي كُلف بإرسالها إلى السويس، أسابيع قبل ذلك.

لقد تلقى المصريون خسائر فادحة، وكانت الجثث تملأ الطرقات فأصبحت بالتالي معرضة للحرارة والتعفن، وأعطى (ماسو) الأوامر إلى العقيد (بروتيني) - الذي كان آنذاك على رأس الوحدة الأولى للمظليين الغرباء - بأن يتخلص من هذه الجثث، وكلّف (لوبان) بهذه المهمة التي لا يطمح إليها أحد، وقام (لوبان) بهذا العمل بضمير أخلاقي و لم يُهمل أي شيء كان يجب أن يفعل لمحاربين مسلمين، وحفر بمساعدة مساجين حفرة كبيرة مع الاعتناء بكونها متوجهة نحو القبلة، بل قام بترع الملابس من الجثث حرصا منه على أن يتم كل شيء كما ينبغي.

لقد كان الملازم صارما جدا إذا تعلق الأمر بأداء عمل ما، ولكنه يصبح مشاغبا إذا

لم تكن كتيبته في مهمة - وهذا ما كان يحدث نادرا، وكان يقال إنه يهوى الترويح عن نفسه بالشجار في الأماكن الأنيقة. وهكذا، لما كنا نلتقي به في مكانه المفضل، حانة الفندق الأسطوري (سان جورج)[1] الذي استقبل كل مشاهير أوروبا، لم يكن نادرا أن نراه يبحث عن خصام مع الذين يقرر هو

[1] فندق " الجزائر " حاليا.

أهم لا يعجبونه، مسببا الخسائر لــ (توماس) ذي الأصل الأرميني العامــل في الحانة.

أما أنا، فكنت أتجنّب فندق (سان جورج) لسبب لا يمكن لأحد في الجزائر أن يعرفه.

في مصادفة غريبة، تعرف أبي خلال دراسته بأحد مشتري هذا الفنــدق، وصارت عائلة (أوساريس) معدودة ضمن أهم المساهمين في رأس ماله، غير أني كنت أسمع أبي - أكثر من مرة - وهو يشكو من قلة مردوديته المادية، وكان يتهم المساهمين الآخرين بعدم إعطائه ما يستحقه، ولهذا السبب كنت مقاطعا لهذا المكان الفخم، مفضلا فندق (آليتي) الذي كان أقل أناقة منه نوعا مّا.

وإذا اعتدنا التخاطب بصيغة المفرد، أنا و(بورنيول)، فلم يكن ذلك راجعا إلى كوننا نرتاد نفس الحانات، ولكن لأننا كنا ننتمي معا إلى تنظيم (الطلبــة الشباب المسيحيين).

وكان (لوبان) مستغربا من كوني لا أكلمه عن حدث اليوم، فقال:

- هل أنت على دراية بما جرى اليوم.. على الأقل؟

- وما الذي جرى؟

- الذي حدث للقائد الأكبر - أو بالأحرى ماذا أوشك أن يحدث لــه - لأنه نجا بأعجوبة.

- تقصد الجنرال (ماسو)؟

- لا، أقصد الجنرال (سالان).

- اسرد عليّ ما حدث..

وانفجر (لوبان) ضاحكا، ثم قال:

- إنك لا تعلم شيئا! وأنت الذي يُفترض أن تكون أكثر الناس معرفة بما يحدث في الجزائر!

وهكذا قصّ علي (جان ماري لوبان) ما الذي حدث في ذلك اليوم.

تم إطلاق قذيفتين صوب مكتب الجنرال (سالان)، القائد الأعلى وقائد قيادة الناحية العسكرية، بواسطة آلة شيطانية تم صنعها باستعمال أنبوبين من أنابيب قنوات صرف المياه، و لم يحدث له شيء، غير أن أحد معاونيه، وهو القائد (روديي) لقي حتفه جرّاء ذلك.

وفي اجتماع سري صباحي ساعات بعد ذلك، أخذ (ماسو) يصرخ في وجوهنا، و لم يقل (ترانكيي) شيئا:

- إذن هكذا هو اهتمامكم بـ "الفلاقة"؟

وقلت محتجا:

- حضرة الجنرال، إن هذه المهمة ليست من اختصاصنا!

- كيف تقول إنها ليست من اختصاصكم؟ أنتم هنا من أجل القضاء على مدبري الجرائم، أليس كذلك؟

- نعم، من أجل القضاء على مُنفّذي العمليات المنظمة من طرف جبهة التحرير.

- وماذا بعد ذلك؟

- ليست جبهة التحرير هي التي قامت بهذه العملية.

- وكيف يمكن لك معرفة ذلك؟

- لأن جبهة التحرير غير قادرة على التحكم في التقنيات المستعملة، أنا واثق من ذلك.

وغمغم ماسو وأخذ بالتفكير للحظات، ثم قال متسائلا:

- ومن يمكنه فعل ذلك إذن؟

- أظن أنهم الشيوعيون.

وتمت إحالة التحقيق لمصالح الشرطة القضائية.

وفي 18 يناير، التقيت المحافظ (بارا) بسبب هذا الموضوع، وتمكنتُ بهذه المناسبة من التعرف على (هونوري جيفودان) الذي قدم خصيصا من باريس لإعانته.

لقد سبق لــ (جيفودان) العمل في الجزائر العاصمة سنة 1956 عندما بدأ البحث عن فريق (إيفتون) المكون من العامل الشيوعي في شركة الغاز الذي نسق مهمته مع كيميائي ينتمي للأقدام السوداء من أجل تفجير العاصمة.

واعترف لي (جيفودان) بعد ذلك بأنه كان يجب على (إيفتون) الاعتراف تحت التعذيب، مخافة أن يتم تدمير ربع المدينة، وذلك رغم منع (بول تيتغن).

كان (جيفودان) يتحدث مع (فولك)، ضابط الاستعلامات في الوحدة الأولى للمظليين الغرباء، وقمت بإبداء رأيي كذلك، واستفسر (جيفودان):

- أنتم تظنون أن الشيوعيين هم الذين قاموا بهذا العمل؟

- إنه افتراض من جملة افتراضات عديدة، فأنا لا أملك دليلا على ذلك.. يمكن القول إنه حدس أو فرضية عمل.

- ولكن من منهم؟

- مصلحة العمليات التابعة لهم، إنها فرقة (أندريه موان).

ونظر الجميع بعضهم إلى بعض وهم يحركون رؤوسهم.

وأقر (جيفودان) بأن هذا ممكن!

وفي اليوم الموالي، عندما رأيت (ماسو) تكلمنا مرة أخرى عن ذلك، وقال متسائلا:

- ما هذه الحكاية الخاصة بمصلحة العمليات التابعة للشيوعيين؟

- أظن أن الشيوعيين لهم مصلحة عمليات مماثلة لما عندنا، بمعنى أنهم يملكون خلية سرية للتدخل عن طريق خبراء في الأسلحة والمتفجرات، وهذه الخلية موضوعة تحت قيادة (أندريه موان).

- ومن هو (أندريه) هذا؟

- إنه أحد النقابيين القدماء الذين يشرفون على العمليات العنيفة التي يقوم بها الحزب، وليست هذه هي المرة الأولى التي يقوم فيها الشيوعيون بعملية مثل هذه، فهناك السلاح المستعمل في عملية 06 أكتوبر أين كنت مستهدفا، رشاش (ستان) من المخزون الذي اختلسه الضابط (مايو)، ثم هناك (إيفتون) من نحو عام ونصف، بل لقد وجدت "فلاقة" مختبئين في مقر الحزب بسكيكدة.

- وماذا تنتظر حتى توقفه؟

وشرعت في توجيه أبحاثي صوب جهة "الحزب الشيوعي الجزائري"، وهذا من أجل إخافة مسؤوليه ودفعهم إلى العمل السري، وبسبب هذا تخفّى أناس منهم إلى غاية شهر يونيو.

وكان (بارا) و(جيفوردان) يتقدمان من جهتهما في أبحاثهما.

وهكذا، حل أحد مفتشي الشرطة العلمية العاديين اللغز، لقد ترك مرتكبو العملية أدواتهم في عين المكان، وهذا هو الذي فضحهم.

.بملاحظة السلك الكهربائي الذي استعمل من أجل إطلاق النار، والذي كان يحوي 14 خيطا بدل 19 من النوعية المعهودة، اتبع المفتش طريقا أوصلته إلى أحد العمال، وكان لحّاما ينتمي إلى الأقدام السوداء، وشارك في الحرب الهند الصينية، وعند استنطاقه، تكلّم واعترف.

أما (بارا) و(جيفوردان)، فإنهما اعتبراه - انطلاقا من كلامي - شيوعيا، واغتاظ هو لذلك، وقرر أن الاعتراف بما حدث أفضل من أن تُلصق به تهمة يمقتها كهذه.

وبما أنه كان سباحا ماهرا، تم قبوله في النادي الرياضي الراقي التابع للدكتور (كوفاكس)، وكان المدعو (فيليب كاستي) أحد أعضاء هذا النادي.

أياما بعد ذلك، تم إيقاف (فيليب كاستي)، وكان هو منفذ العملية، ولقد كانت اهاماتي صوب الحزب الشيوعي الجزائري غير مؤسسة، وعندما علمت أن (فيليب كاستي) كان هو المنفذ للعملية، بقيتُ مشدوها.

لقد قيل الكثير حول هذا الاعتداء الموجّه ضد (سالان)، ومن جملة ما قيل إنــه قد يكون منظما من طرف المصالح الفرنسية أو حتى إسرائيل. وبالمناسبة، فأنا هــو الذي كوّن (كاستي) أحد رجال (الصدمة 11) الذين كنت أعرفهم جيدا، حــتى وإن كنت لم أره مدة طويلة، ودربته على استعمال سلاح (البازوكا).

لقد حصلنا على مئات من هذا النوع من الأسلحة الألمانية في (مون لــووي)، ولم يكن أحد يعرف كيف يمكن أن تُشغّل فقمنا بتفكيكها، وأصبح (كاستي) بعد ذلك خبيرا فيها، إلى اليوم الذي أخبرنا فيه بأن بعضها مفخخ، وأنه يجب - نتيجة لذلك - تدميرها جميعا.

كان (كاستي) رفقة والديه في المقاومة، وعندما تم تخفيض عدد الجنود، لم يبق في مدرسة (سان سير) أين تم قبوله، وهكذا وجد نفسه تحت قيادتي رقيبا في (الصدمة11)، وبعد ذلك تزوج بفتاة ميسورة من منطقة (بيربينيــان)، وتم تشغيله في مستوى عال عند (رونو) بالجزائر العاصــمة، وأصــبح صــديقا للدكتور (كوفاكس)، وهو طبيب قديم في كتيبة المشاة التي قامت بحملــة في إيطاليا، وقاسمه (كوفاكس) أفكاره، وكان على يقــين مــن أن انتمــاءات (سالان) الماسونية كانت ستؤدي به عاجلا أم آجلا إلى "تفضيل" اســتقلال الجزائر.

وأراد (كوفاكس) اغتيال (سالان) بالبندقية الرشاشة 24/29، وأخبره (كاستي) بأن ذلك غير مجد، وأن استعمال طريقة تماثل طريقة (البازوكا) - التي يعرفها جيدا - أفضل من ذلك.

ولهذا قام (كاستي) بمساعدة اثنين من عمال السلاح بصنع هذه الآلة.

وأحكم (كاستي) تحضير العملية، وقام بكراء غرفة في البيت المتواجد قبالة الفندق الخاص الذي كان يُستعمل كمقر (لسالان)، وقام بمراقبة أفعاله وحركاته طويلا.

وتم الشروع في العملية في اللحظة التي غادر فيها الجنرال مكتبه من أجل الذهاب إلى (لاكوست)، وبما أنه استعمل ممرا أرضيا، لم يتمكن (كاستي) من رؤيته وظن أنه ما زال داخل المبنى.

وعندما جلس الرائد (رودبي)، مسؤول مكتب (سالان)، في مكتب رئيسه من أجل مقابلة أحد العقداء، ظن (كاستي) أن الجنرال قد عاد، وأطلق القذيفتين.

ومرت القذيفة الأولى فوق رأس العقيد الذي كان جالسا قبالة المكتب، واخترقت النواة جسد (رودبي) لتكمّل مسارها في قدم أحد المساعدين.

وهكذا فقد القائد (رودبي) الحياة بسبب اقترافه خطأ الجلوس على كرسي قائده.

و لم يتكلم (كاستي) بشيء عني أو عن مروره بفريق (الصدمة 11) أثناء محاكمته في سنة 1958.

ونصحه محاميه بإلقاء التهمة على (كوفاكس) الذي فر إلى إسبانيا، و لم أكن أعرفه، ولكن هذا لم يكن من طبع (كاستي) الذي فضّل تحمّل اثني عشر سنة سجنا.

الإضراب

طلب مني (ماسو)، في أول مقابلة يوم 8 يناير 1957، الاعتناء بكسر الإضراب التمردي الذي تم تحديده يوم 28 يناير عن طريق منشورات موقّعة من طرف (بن مهيدي).

وكنت أستغل لمدة ثلاثة أسابيع القائمة التي زودتني بها مصالح الاستعلامات العامة، ولم أجد فترة فراغ جرّاء ذلك.

وتم ملء معسكر (بني مسوس) بحوالي ألف وخمسمائة سجين، وأُرسل الباقون إلى معسكرات فرعية، كما تم استجواب كثير من المتهمين، وخاصة الأشخاص المتورطون في عمليات دموية كانت لا تزال ضارية.

وفي 26 يناير، انفجرت ثلاث قنابل في نفس الساعة في حانات في (طريق ميشلي)[18] وذلك في (أوتوماتيك)، وفي (المقهى) وفي (كوك - هاردي)، وكانت هذه الأخيرة أكثرهم وحشية، حيث تسببت في مقتل أربع نسوة، وجرح سبع وثلاثين شخصا آخر.

وألقينا القبض على عدة واضعين للقنابل وكذا وسائطهم، ولكن لم يتم إيقاف أي مسؤول عن الإضراب التمردي.

كذلك لم أكن أريد إظهار أننا مشغولون بهذا الإضراب منذ مدة كبيرة، وأننا نسعى لكسره وسوف نقوم بذلك فعلا، وهذا لأن جبهة التحرير لم تكن تتوقع تدخلا من طرف الجيش.

وكنت على دراية بأن التمرد كان بإمكانه تعطيل المصالح العامة، وكان انشغالي الأساسي ينصبُّ حول استعمال كل الوسائل لضمان العمل وعدم التعطل.

وفي زمن "معركة الجزائر"، كانت جبهة التحرير الوطني تملك سندا لدرجة أنه لم يكن هناك قطاع خارج سيطرتها، وكان صعبا - من هذا المنطلق - أن يتم الاعتماد على الرسائل البريدية أو الهاتف.

---

[18] شارع (ديدوش مراد) حاليا.

وفي ليلة 27 إلى 28 يناير 1957، قمت بمعاينة كل الوحدات من أجل التأكد من أنهم جاهزون للعمل. وقمت بتكليف كل وحدة بالحفاظ على السير المنتظم لمصلحة من المصالح العامة (الماء، الغاز، الكهرباء، البريد، النقل الجماعي...)، وتم تزويدنا بالقائمة الكاملة للعمال، وكانت هذه القوائم تُقارن بقوائم المتهمين التي أنجزناها بناء على قائمتنا الأولية، وكذا الاستنطاقات والاستجوابات.

وفي الصباح، أخذ المظليون أماكنهم في كل الأماكن التي يعمل فيها أناس يشغلون محورا في المصالح العامة. وتم معاينة من هو موجود في عمله ومن لم يكن كذلك، ثم يتم التوجه نحو منازل المُضربين ويُقتادون بسرعة وبعنف إلى أماكن عملهم.

وبفضل هذه الطريقة، بدأت المصالح العامة في العمل باكرا، وكان تحضير عملية كهذه وتطبيقها في مساحة تحوي أكثر من ثمانمائة ألف ساكن يتطلب مجهودا ضخما، وشكلت هذه العملية استعراضا مدهشا لقوات وحداتنا، وتمكن العامل النفسي الذي تركته هذه العملية من كسر الإضراب التمردي في أقل من ساعة واحدة.

وتم نزع واجهات المحلات التي ظلت مغلقة، واضطر التجار الذين أُخبروا مسبقا بما سيتعرضون له إثر ذلك إلى البقاء في محلاتهم خشية السرقة.

وكنت أراقب هذه العمليات في المحافظة عندما حظيت بزيارة مدني فرنسي قدّم نفسه على أنه إطار عمال منظمة النقل البحري، وأخبرني بأن الحمالين مضربون، وأن ذلك يعدُّ كارثة محققة إن لم نفعل شيئا.

وهرعت إلى معسكر (بني مسوس) من أجل توفير اليد العاملة.

وبمساعدة أحد الضباط، قمنا باقتياد مائتي رجل إلى الميناء تحت حراسة عسكريين يؤدون خدمتهم الوطنية، وكذا مظليين، وأفرغ السجناء حمولة البواخر بسرعة مضاعفة مقارنة بالحمالين الأصليين، وأصر الإطار الفرنسي على أن ينال السجناء أجرهم، وكان الجميع مسرورا بذلك.

وبعد إفراغ حمولة البواخر، رجعتُ إلى المحافظة في منتصف النهار، وكنت أود الغداء بسرعة في (جزيرة الجمال)، ولكن عند توجهي إليها لقيني أحد الملازمين من مصالح الدرك ودعاني إلى المطعم الجماعي للجيش.

وهناك تفاجأت عندما رأيت الندلاء مضربين عن العمل، وتصاعدت قهقهات وسط قاعة كبيرة كنا نجلس فيها من طاولة جلس فيها عنصران من الوحدات النسائية للقوات البرية، واستقبلتنا الشابتان بتهكم واستهزاء، قائلتين:

- إننا نهنئكم معاشر المظليين، لم تتمكنوا حتى من منع الإضراب في المطعم! إننا نتساءل كيف هو الأمر الآن في الخارج.. يمكن لكم أن تكونوا فخورين بعملكم.

وكان ثمة نادل يمشي بين الموائد وعلامات الاستهزاء بادية على وجهه، واستدعيته قائلا:

- ما الذي يجري هنا؟ وماذا تنتظر من أجل أن تقوم بخدمتنا؟

- أنا في إضراب.

- ماذا؟!

وعمَّ السكوتُ المطعمَ فجأة..

- قلتُ لك بأني مضرب عن العمل ولن أقدم لك شيئا، وإذا لم يعجبك الأمر فإن ذلك لا يهمني.

وقمت من مكاني فجأة.. لقد كان النادل يخاطبني بوقاحة، ولهذا لطمته، وعاود هو وزملاؤه العمل بسرعة بعد ذلك.

وبعد الغداء، قدم صاحب الفندق ليخبرني أن صاحب المطعم العسكري يريد مقابلتي، وبما أنني لم أشرفه بزيارتي، ذهب يشكو إلى قيادة القوات لدى العقيد (تومازو) الملقب بـ (أنف الجلد)، وهكذا استدعاني العقيد (تومازو) - الذي كان مسؤول المطعم - وأراد معاقبتي بتوقيفي لمدة ثمانية أيام، ورفضت الإمضاء على ذلك وأخبرته صراحة برأيي في مصلحته، وقام العقيد (مايير) برمي طلب المعاقبة في سلة المهملات.

وعندما علم رجالي والملازمون التابعون لوحدتي بما جرى، أرادوا أن ينتقموا من (تومازو) بذبحه، ثم يُلصقون ذلك بجبهة التحرير، وحاولت تهدئتهم، ورغم ذلك قاموا ببعض التخريب في مطعمه.

وهكذا تم منع ضباط الوحدة الأولى للمظليين من الدخول إلى المطعم العسكري المختلط بالعاصمة.

وفي يوم 29 يناير – أي في اليوم الثاني من الإضراب – لم يجرؤ أحد من عمال المصالح العامة على توقيف العمل، وكان كل واحد منهم يشعر بأنه مراقب من طرف المظليين، غير أن بعض المحلات بقيت مغلقة، وكان أصحابها غالبا من التجار الذين فُتحت محلاتهم بالقوة واضطروا إثر ذلك لتصليحها. وحرص المظليون على تحديد المدبرين، وتمت زيارة المؤسسات واعتقال كل الذين لم يكونوا من عمالها، وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى ورشاتِ عمل البنائين.

وقمنا بسؤال العمال:

– لماذا لا تعملون؟

– نحن مضربون عن العمل.

– ولماذا تضربون عن العمل؟

– لأنه قيل لنا أن نفعل ذلك.

– ومن قال لكم هذا؟

– أناس لا نعرفهم.

– أناس من جبهة التحرير؟

– ممكن..

وكنا نشرع – ضد كل التوقعات – في مراقبة الوثائق، كان يكفي أن نجد شخصا لا علاقة له بالورشة، كحلاق مثلا، كي يتم الجزم بأنه أحد إطارات جبهة التحرير الوطني الذين قدموا لإعطاء التعليمات، وكان متهمون من هذا الطراز يقادون للاستنطاق.

ويُمكن القول – على العموم – بأن الإضراب فشل فشلا ذريعا.

"فيلا" الأبراج الصغيرة

كانت "معركة الجزائر" تدور في الليل، وكانت ليالي العاصمة هي الرهان، حيث كان يجب أن ننتزعها من جبهة التحرير، و لم يكن صعبا التكهن بأن الوجه الليلي والسري لمهمتي كان يقودني إلى تنظيم توقيفات واعتقالات، ومن ثَمّ إلى فرز المتهمين ومعاينة الاستنطاقات والقيام بعمليات قتل دون اللجوء إلى محاكمة. وحتى وإن كان كل هذا لم يُقل صراحة، فإن النبهاء يدركون بسرعة أن دوري هو تخليص الأنظمة من أكثر -الأعمال صعوبة، والتغطية على ما يقومون به هم أنفسهم.

وإذا كان هناك مشكل ما، سيُبادر الجميع إلى إلقاء كل الحمل على عاتقي وحدي، وكانت الاستعلامات العامة تعرف ذلك، وكنت أعرفه أنا أيضا.

ومن بين الذين كنت على اتصال دائم بهم، كان (بول تيتغن) هو الوحيد الذي لم يفهم شيئا على الإطلاق، وكان هذا غريبا لأنه لم تكن تظهر عليه البلادة والبلاهة، ولكن مسؤوليه وزملاءه في المحافظة كانوا على علم بذلك.

وأوجد لنا (غارسي) بسرعة مقرا لا يثير الانتباه في منطقة (مصطفى) بضواحي الجزائر العاصمة، لقد كان ذلك المقر فيلا كبيرة متكونة من طابقين فوق القبو، ومحاطة بحديقة مهجورة، وكان هناك أربع غرف في كل طابق، وكان اسم الفيلا يدل على أنها كانت موجهة إلينا أساسا، "فيلا ذات الأبراج الصغيرة"، وهي تحمل نفس اسم الثكنة الباريسية التي تحوي مصلحة التوثيق الخارجي والتجسس المضاد، وكان من محاسن المكان المحيط بها هو أنه كان معزولا، ولم يكن هناك جيران يزعجوننا.

وفي ذلك المكان، كنا نقوم باستنطاق المساجين الذين نقبض عليهم.

لقد كنا نتواجد في مكتب المحافظة نهارا، وبعد ذلك نتوجه إلى تلك الفيلا، حيث كنت أجري هناك قبل غروب الشمس محصلة للمعلومات المقدمة من طرف

الوحدات. وفي الوقت المناسب، سأقوم بالفصل في المشاكل المتعلقة بالكفاءة على المستوى الوطني.

وبدأت رفقة (غارسي) في تحضير العمليات الخاصة بنا، ولم يكن ذلك يتطلب حشد وسائل ضخمة، لأنه لو كان الأمر كذلك لتولت الوحدات الأخرى القيام بذلك، وكان الأهم هو تقدير مخاطر هذه العمليات، فإذا كانت لا تبدو لي خطيرة، كنت أوجه أوامري إلى الملازم (غارسي) الذي يتولى الأمر رفقة فريقي الأول، أو حتى برجل واحد منهم فقط.

قدم أحد الجزائريين - مثلا - إلى المحافظة، وقام (غارسي) باستقباله، كان هذا الرجل متزوجا بفرنسية قامت بالتخلي عنه وانصرفت إلى أحد المتعاطفين مع جبهة التحرير، وكان يتعامل مع واضعي القنابل. وفي الليلة الموالية، توجه اثنان من رجالي نحو العنوان المُبيَّن، وعندما رأينا أحدهم يرجع إلى الفيلا مرتديا بذلة جديدة - غير أنها ضيقة نوعا مًا لضخامته - أدركنا أن العملية قد تمت، وفعلا تم العثور على المتهم الذي كان يملك خزانة ملابس رائعة، وبما أنه اعترف بكل شيء في الحال، ارتأينا أنه لا داعي لإحضاره إلى الفيلا.

وعند غروب الشمس، كنا نقوم بارتداء لباسنا الفهدي ونبدأ حينها عمليات الاستعراض.

كانت فرقتنا تخرج في نحو الساعة الثامنة مساء، وكنا نتدبر أمرنا كي نرجع قبل منتصف الليل بمتهمين لنجري الاستنطاقات. وكانت الوحدات تخبرني طوال الليل بالتوقيفات التي أجرتها، وغالبا ما تنتظرني لأقرر ما الذي يجب فعله بالمساجين.

وفيما يتعلق بالمتهمين الموقوفين بالعاصمة، كنت أنا أساسا هو الذي يقرر من منهم سيخضع لاستنطاق ومن منهم يقاد مباشرة إلى المحتشدات إذا لم يكونوا ذوي أهمية كبيرة.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للأشخاص الذي كانت تربطهم علاقات بجبهة التحرير تحت ضغط الضرورة، أو أولئك الذين جُنّدوا في صفوفها بالقوة، وكان أولئك لحسن الحظ يمثّلون أغلبية المتهمين المحجوزين.

أما الذين كان ضررهم متيقنا أو جد محتمل، فكنا نحتفظ بهم بخلفية جعلهم يُدلون باعترافاهم بسرعة قبل التخلص منهم.

كنت أركض من مركز شرطة إلى آخر تارة، وتارة أخرى رفقة إحدى فرقيّ لإجراء اعتقالات إذا بدت لي العملية دقيقة وذات خطر مّا.

وكنا أقل من عشرة متوزعين في سيارتنا الكبيرة، سيارتي (جيب) و(دودج)، وكنا نناور بسرعة دائما، وذلك لأن الليالي لا تدوم.

لقد كان الأشخاص الذين نتكفل بهم مباشرة هم الذين يعملون في مقاطعات مختلفة، أو الذين لم يكونوا ينتمون إلى أي مقاطعة منها، وهذا هو الحال إذا كانوا متواجدين خارج العاصمة.

ومن بين العمليات التي كنا نقوم بها وأشارك فيها شخصيا، كان أغلبها يقود إلى إجراء استنطاقات، بينما كان البعض الآخر يؤدي إلى تصفيات جسدية تُنفَّذ في عين المكان.

أذكر - مثلا - نساء وَشَيْنَ بمرتكبي اغتيالات، لقد كان المتهمون يختبئون في كوخ قرب غابة (زرالدة)، وكان ذلك في مقاطعة (فوسي فرانسوا)، ولم نكلف أنفسنا عناء إجراء استنطاقات، وتم القضاء عليهم في عين المكان.

ولم نكن نُحضر أبدا أكثر من ستة متهمين في نفس الوقت، لقد كانت حالات الذين يدخلون إلى فيلا "الأبراج الصغيرة" تعدُّ جد خطيرة لدرجة أنهم لا يخرجون منها أحياء، وكان ذلك يتعلق بالذين شاركوا في العمليات الإرهابية خاصة.

وفي نفس الوقت، كان كل فريق من الوحدة العاشرة للمظليين يُجري من جهته استنطاقات للمتهمين الذين قاموا بتوقيفهم، وإذا رأوا أن المعلومات المتحصل

عليها تفوق صلاحيات المقاطعة التي تنشط فيها الوحدة، فإنهم يقومون بإرسال السجين إليّ وأقوم باستنطاقه - شخصيا - مرة ثانية.

كان يُمكن لرجال (بيجار) - مثلا - أن يوقفوا أحدا كان يدلي بمعلومات هامة تخص مقاطعة (الحراش) التابعة لـــ (مايير)، وهكذا كان عليَّ أنا أن أستلم المشعل ويُسلم المتهم إليّ.

وفي الأيام ذات الضغط الكبير، كان يُرسل إليَّ مباشرة كل الذين لم يكن للوحدات الأخرى الوقت الكافي لاستنطاقهم، وكنا نجري الاستنطاقات فور وصول المساجين، كما كنا نلجأ إلى التعذيب في "فيلا الأبراج الصغيرة" - مثل باقي الوحدات المسؤولة في القطاع - إذا رفض السجين الاعتراف، وكان هذا هو الغالب، وكانت المعلومات المتحصل عليها تقودنا غالبا إلى القيام بدورية أو دوريات أخرى كثيرة لكي نعثر على مخزن للأسلحة أو الذخائر والمتفجرات مثلا. وإذا كان الأمر غير ذلك، فإننا نوجه الوحدات العاملة إلى إجراء توقيفات أخرى.

وإذا ذهبنا للقيام بذلك، كانت حراسة السجناء تتم - غالبا - من طرف رجل واحد يمكث في الفيلا. وإذا تكلم المتهم وظهر أنه لا شيء آخر عنده يضيفه، كان أفظع شيء هو أن نُفرج عنه بعد ذلك، وكان هذا حال سجين أخذ مني عهدا بإطلاق سراحه إذا اعترف، غير أن ذلك كان نادرا، لأنه إذا ما تم إطلاق سراحه فسوف يتعرض للذبح مباشرة من طرف جبهة التحرير.

وكان رجالي في الغالب يخرجون من محيط العاصمة بقرابة عشرين كيلومترا، في "جبال بعيدة"، حيث يتم القضاء على المتهمين دفعة واحدة بطلقات الرشاش، ثم يتم دفنهم بعد ذلك. ولم يكن الإجهاز عليهم يتم في نفس المكان، فقد طلبت من مساعدي (غارسي) تعيين من يقوم بهذا العمل المرهق.

كنت أتسلم أيضا رجالا تم اعترافهم لدى استنطاق الوحدات الأخرى لهم، ولا شيء آخر يمكن لهم تقديمه، وهم غير مرغوب فيهم، وفي هذه الحالة، لم يسألني

أحد عن طبيعة ما سأفعله بهم. ويمكن القول إنه إذا أُريد التخلص من أحد ما، فإنه يُساق إلى فيلا "الأبراج الصغيرة".

وكنت أقيّد الأحداث في صفحات دفتر سري للغاية نهاية كل ليلة. كان الدفتر يحوي عدة نسخ كربونية، وهو ما كان يسمح بتحرير نص من أربع نسخ دائما.

ويُسلّم النص الأصلي إلى (ماسو)، وتبقى ثلاث نسخ تُرسل واحدة منها إلى الوزير (روبر لاكوست)، وأخرى إلى الجنرال (سالان)، والثالثة تبقى ضمن أرشيفي الخاص، وكنت أحتفظ بهذا الدفتر عندي.

وفي تقريري المحرر، كنت أجمع المعلومات التي تُقدَّم لي من طرف ضباط الاستعلامات ليلا، وكنت أسجل عدد التوقيفات التي قامت بها كل وحدة وعدد المتهمين الذين تم القضاء عليهم عند استدعائهم، وعدد الاغتيالات التي يقوم بها فريقي أو باقي الوحدات الأخرى، ونادرا ما كنت أسجل أسماء بعينها إلا إذا رأيت أن ذلك له أهمية مًّا.

وانقطعت انقطاعا شبه تام عن النوم، وكان نومي لا يتعدى - في أحسن الأحوال - ساعتين في نهاية الليل وساعة في وسط النهار. وبما أني لا أدخن، كنت أتحمل ذلك بشرب لترات عديدة من القهوة يوميا.

كان أحد الجنود المؤدين للخدمة العسكرية هو الذي يقود سيارة (جيب) التي أستقلُّها كثيرا. وفي يوم من الأيام، نام السائق وانحرفت السيارة عن الطريق. وأجلسنا أحد الضباط المكلفين بمصلحة السيارات التابعة للقيادة العامة كي نأخذ قسطا من الراحة، وجنّد كل عماله ليتم إصلاح السيارة قبل طلوع الفجر.

وبعد قهوة أخيرة في الصباح، كنت ألتقي (ترانكيي) ونذهب لمقابلة (جاك ماسو) في حيدرة لكي نقص عليه ما حدث طوال الليلة الماضية، وكان يستقبلنا عنده سرا حتى لا يكون لنا اتصال برجال الوحدة الأخرى. وكنا نعلم أنه بعد مقابلتنا يلتقي (لاكوست).

وعندما كنت أقدّم إلى (ماسو) النسخة الأصلية من الدفتر، كنت أُردف ذلك بتوضيحات سريعة عن العمليات، وكنا نقول إن الاغتيالات التي نقوم بها هي نتيجة لمحاولات هرب فاشلة يقوم بها السجناء، وكنت أحرص على أن لا أعطيه وقتا للتفكير ولا أحرجه.

وكان (ماسو) لا يعلّق إلا بغمغمة لا ندري أهي تعبير عن الشكر أم الانزعاج، غير أنه كان يتمتع بميزة كبيرة: لقد كان دائما يتستّر على رجال وحداته.

إذا كانت الاجتماعات بين (ماسو) و(ترانكيي) وأنا تتم يوميا، فإننا كنا نعمل على جعل الاجتماعات التي يحضرها رؤساء الوحدات محدودة، وذلك لأنهم دائما ما يترلقون إلى هاوية الافتخار والإشادة بالذات، وكان كل واحد منهم يُعلن باعتزاز نتائجه على أمل أن يكون أفضل من الآخرين. وفي ربيع تلك السنة، توصّل أحدهم إلى فكرة سخيفة تقضي بجرد كل وحدة للأسلحة التي استرجعتها من جبهة التحرير، وكان هذا الوضع الشبيه بلوحة صيد قد ساهم في توليد أحقاد بغيضة.

وأذكر أنه تم إحصاء مسدس أطفال من طرف إحدى الوحدات ضمن الأسلحة المسترجعة في الهند الصينية - أين كان هذا النوع من التسابق قائما، وكنا سننحدر في الجزائر إلى هذا المستوى السخيف لا محالة.

وكنت أرسل إلى (تيتغن) تقريرا يوميا باسم الأشخاص الموقوفين، وكان عليه أن يوقّع دعوى للمثول، وأظن أنه كان يعلم أن المتهمين المسجلين بالقائمة من ذوي الوزن الثقيل سيتعرضون إلى التعذيب، غير أنه - ربما - لم يكن يعلم أنهم سيُقتلون مباشرة بعد ذلك، إلا إذا تظاهر بعدم العلم فقط.

الخوف

عندما طلبت المصالح المدنية من الجيش القيام بمهام حفــظ الأمــن في الجزائــر العاصمة، تضمّن كلامها تلميحا قبول اللجوء إلى الاغتيالات دون محاكمة قضائية، وعندما رأينا أنه من الأفضل أن نحصل على تعليمات أكثر صراحة، فإننا كنا ننــال ذلك دائما.

وهكذا ألقت الوحدة الثالثة للمظليين التابعة لــ (مارسيل بيجار) القبض علــى حوالي اثني عشر من القتلة النشطين في جماعة تُعرف بــ (جماعة السيدة الإفريقية). وتم التعرف عليهم على أنهم مرتكبو العديد من العمليات الإجرامية التي استهدفت الفرنسيين والجزائريين على السواء.

وأخبرني (بيجار) بأنه لا يعرف ما الذي يفعله بهم، وتكلمــت في ذلــك مــع (ترانكيي).

بعد غد، كان علينا أن نحضر اجتماعا لقواد الوحدات، وخــلال الاجتمــاع، طرح (بيجار) - بصراحة - السؤال الذي كان يشغل باله، فقال:

- أخبروني، ما الذي أفعله بأولئك الأشخاص؟

وأجابه (ترانكيي):

- ربما كان عليك أن تعينهم ليُعاودوا الالتحاق بالجبل.

وعقّب (ماسو) قائلا:

- نعم، أرسلهم إلى جبال بعيدة جدا.

وفهم الجميع مقصده.

ثم أردف قائلا:

- اصبروا قليلا، إننا سنحظى بزيارة (ماكس لوجون) - مستشار الحــرب في حكومة (غي موليه) - وسأحدثه في هذا الموضوع، وستكون فرصة طيبة لمعرفة ما عنده في هذا الأمر.

وأثناء اللقاء الذي جمع (ماكس لوجون) و(ماسو) وجها لوجه، تم الحديث عن مجموعة من الإرهابيين الموقوفين، وهل الأفضل تسليمهم إلى العدالـــة أم القـــضاء عليهم مباشرة.

وقال (ماكس لوجون):

- هل تذكر طائرة (دي سي 3) التابعة لخطوط الأطلس الجوية؟ إنها الطـــائرة التي كانت تُقلُّ (بن بلّة) زعيم جبهة التحرير ورفقاءه الأربعـــة، في 22 أكتـــوبر الأخير..

ورد (ماسو) مستغربا:

- من لا يذكر ذلك سيادة الوزير!

ورد الوزير قائلا:

- إنها قضية أعرفها جيدا لأن الرئيس (غي موليه) أوكل إليّ شخـــصيا مهمـــة الإشراف عليها بالتنسيق مع الجنرال (لوريُّو). عندما علمت الحكومة أن أولئـــك الأشخاص سيتنقلون بالطائرة من المغرب صوب تونس، أمرت وحدات الطـــيران المتواجدة بوهران بإسقاط الطائرة. و لم يمنع من تنفيذ هذه المهمة سوى علمنا - في اللحظات الأخيرة - بأن طاقم الطائرة فرنسي.

وأردف قائلا:

- إنه لمؤسف بالنسبة للحكومة أن يكون (بن بلّة) حيا الآن. لقد كان توقيفـــه خطئا واضحا لأنه كان علينا قتله.

وفهم (ماسو) ما الذي يريد الوزير (ماكس لوجون) قوله.

وقام باستدعائنا - أنا و(ترانكيي) - مباشرة بعد ذلك. وعندما قص علينا مـــا حدث مع الوزير، كان ثمّة شيء واضح بالنسبة لي: سأقوم الليلة بقتل اثني عـــشر شخصا آخر، وكان يمكن أن أدع (بيجار) يتولى هـــذه المهمـــة، إلا أني فـــضلت التكفل بذلك بمساعدة ضباط الصف المتواجدين ضمن فريقي.

وعندما قضينا على أولئك السجناء، لم يكن هناك أدنى شك من أننا ننفذ الأوامر المباشرة لـ (ماكس لوجون) وحكومة (غي موليه)، أي أننا ننفذ أوامر الجمهورية الفرنسية.

ويمكن القول إنه من النادر أن يجد المستنطَقون في الليل أنفسهم أحياء في الصباح، سواء اعترفوا أم لم يعترفوا.

لقد كان من المستحيل إحالة السجناء على سلك القضاء لكثرتهم، وكان هذا سيؤدي - حتما - إلى تعطل الآلة القضائية ليجد كثير منهم أنفسهم خارج شبكة الصيد.

وكنت في مكان يسمح لي - أحسن من غيري - بتقرير ذلك، لأنني كنت أتوجه كل صباح إلى المحتشد الرئيسي بـ (بني مسوس)، أين ألتقي - مثلما ذكرته مْن قبل - المحافظ (سيكالدي - راينو) ومساعده (دوفيشي).

وكان يجب علينا هناك إجراء اختيار جديد، حيث نحيل بعضهم على العدالة وفق الصلاحيات المخولة لي، وكنت أنا شخصيا من يقرر ذلك طوال اليوم.

لقد مرّ أكثر من عشرين ألف شخص على هذا المحتشد، أي ثلاثة بالمئة من مجموع سكان العاصمة وضواحيها، فكيف نحيل عددا كهذا على العدالة؟!

أبلغني (دوفيشي) - أثناء إحدى زياراته - بأن أحد السجناء لم يتم استنطاقه بعد، على الرغم من أنه يشك في تقلّده مسؤولية مّا في جبهة التحرير. وعندما علم المعني بحديثنا عنه، أصابته نوبة من الفزع، وأخبرت (دوفيشي) بأنني سأتولى أمره.

ومباشرة بعد ذهابي، تقدم السجين إلى ضابط الشرطة وألصق بنفسه تهمة القيام باغتيالات عديدة، ومن هذا المنطلق، حول إلى سجن الجزائر العاصمة وأُحيل على قاضي التحقيق ليسرد عليه قصة لا تُعقل.

وبعد إجراء التحقيقات، لم تثبت في حقه أي إدانة سوى التشغيب على القاضي، وتم - تبعا لذلك - إطلاق سراحه. واستطاع عن طريق الاعتراف بتهم خاطئة النجاة من المحتشد.

ويمكن القول بأن النظام القضائي كان سيجد نفسه - لولا مساعدتنا - مشلولا بسبب أشياء كهذه، وهذا ما كان يسمح بإطلاق سراح إرهابيين يعاودون - من ثَمّ - القيام بعملياتهم الإجرامية. ولو تم افتراض أن العدالة هي التي ستتكفل بمثل هذه القضايا، وبحزم كبير أيضا، فإن القلة القليلة من المجرمين هي التي تتعرض للعقاب.

إن النظام القضائي لم يكن مهيئا للعمل في حالات استثنائية كهذه، وحتى وإن سلّم (ميتيران) - وزير العدالة آنذاك - الملفات المتعلقة بالأعمال الإرهابية في الجزائر إلى المحاكم العسكرية، فإن ذلك لم يكن ليكفي أبدا، كما أن إرسال سجناء قتلة إلى المحتشدات في انتظار أن تتكفل العدالة بهم مستحيل أيضا، فكثير منهم كان سيفرُّ أثناء التحويلات بالتواطؤ مع جبهة التحرير.

ولهذه الأسباب، كانت الاغتيالات خارج مجال أحكام القضاء تمثل إحدى المهام المندمجة التي لا يمكن الاستغناء عنها من أجل الحفاظ على الأمن. ولهذا أيضا تم استدعاء الجيش، فلقد تم اللجوء إلى "الإرهاب المضاد"، ولكن بطريقة غير رسمية طبعا.

لقد كان واضحا بأنه كان علينا أن نصفي جبهة التحرير، والجيش هو الوحيد الذي يملك إمكانيات للقيام بذلك. وكان هذا جد واضح لدرجة لم يكن من الضروري فيها إعطاء أوامر بذلك، على أي المستويات.

لم يطلب أحد مني شخصيا تصفية هذا أو ذاك بصراحة، بل كان هذا يأتي ضمنيا. وأما فيما يخص استعمال التعذيب، فقد كان مقبولا إن لم نقل مأمورا به.

كان لوزير العدالة حينها (فرنسوا ميتيران) مبعوث يمثله أمام (ماسو)، وهو القاضي (جان بيرار) الذي كان يتستر علينا وهو الذي يعلم جيدا ماذا يجري في الليل.

كنت أربط علاقات طيبة معه، و لم أُخف عنه شيئا إطلاقا.

إذا كان التعذيب شيئا مستعملا بكثرة في الجزائر، فلا يمكن القول بأنه مُيّــع، لأننا لم نكن نتكلم - معاشر الضباط - بيننا عن ذلك، فالاستنطاق لم يكن يؤدي بالضرورة إلى التعذيب.

كان بعض السجناء يتكلم بسهولة، وبعضهم كان يكفيه شيء مــن العنــف ليشرع في الكلام، ولم نكن نلجأ إلى التعذيب إلا في حالة رفض السجين الاعتراف أو إنكاره للواقع. وكنا نفعل ما بوسعنا لكي نجنب الإطارات الشابة تلطيخ أيديها، بل إن كثيرا منهم كان عاجزا عن فعل ذلك.

وكانت الوسائل المستعملة هي نفسها دائما: الضرب، الكهرباء، وكذا المــاء. وكان الماء أخطرها على السجين، ولم تكن العملية تتجاوز الــساعة الواحــدة إلا نادرا، فالمتهم باعترافه يأمل البقاء على قيد الحياة، ولهذا كان يعتــرف بــسرعة أو يصمت إلى الأبد.

ولكي يطمئن (ماسو) رجاله، حرصَ على أن يجــرب التعــذيب في شخــصه باستعمال الكهرباء. وكان محقا: فإن الذين لم يُعــذّبوا أو يُعــذّبوا لا يــستطيعون التكلم عن التعذيب.

ولكن (ماسو) لم يكن مجنونا، فلقد قام باختيار جلاديه بعناية فائقة بين رجالــه المخلصين له، ولو كنت أنا الذي قام بتعذيبه، لكنت سأعامله بنفس تعــاملي مــع المتهمين، مما يجعله يذكر ذلك دائما، ويفهم أن التعذيب لا يُعجب المعذّب أكثــر من الذي يقوم بالتعذيب.

ولا أذكر أني عذبت أو قتلت أناسا أبرياء.

كنت أهتم خصوصا بالإرهابيين المتواطئين في العمليات الإجرامية. ولا يمكن أن ننسى بأنه من أجل قنبلة واحدة، انفجرت أم لا، كان هنــاك الكيميــائي الــذي صنعها، والمختص الذي ركّبها، والذي تكفل بنقلها والمترصد لأمــاكن وضــعها، وكذا المسؤول عن إعطاء الأوامر بتفجيرها.. إلى غاية أكثر من عشرين شخصا في كل مرة.

وكنت أعتبر أن مسؤولية كل واحد فيهم قاطعة، حتى وإن قدّر المعنيون أنهم ليسوا في غالب الأحوال سوى حلقة واحدة في سلسلة طويلة.

وكان من النادر أن يفقد السجناء الحياة أثناء الاستنطاق، ولكن ذلك كان يحدث أحيانا.

أذكر رجلا مسلما في الأربعينيات من عمره، وذو جسد نحيف جدا، تم إيقافه من طرف وحدتي عن طريق وشاية، وكان يظهر أن له ملامح العمال الترهاء.

كان الرجل متهما بصناعة القنابل، وكانت كل الدلائل تتوافق لتُثبت إدانته، غير أن الرجل - بطبيعة الحال - يُنكر كل ما يُنسب إليه. وكان يقول بأنه مريض بالسل، وبأنه لا يمكن له صنع قنبلة، بل إنه لا يعرف حتى ما هي القنبلة!

وكان الرجل يستفيد - فعلا - من منحة بسبب مرض رئوي، ولكنه كان يجهل بأنه أثناء تفتيش مترله، تم العثور على مادة متفجرة وكذا دفتره العسكري.

ويذكر الدفتر أن الرجل كان خبيرا بالمتفجرات أثناء تأديته للخدمة العسكرية، وهكذا وصلت انحرافات النظام إلى دفع الجيش الفرنسي إلى تكوين خبير في المتفجرات يمارس مهامه الإجرامية بطمأنينة، وبدعم من الخدمات الاجتماعية الفرنسية.

و لم أقم بتعذيب الرجل، وأظهرت له دفتره العسكري متسائلا إن كان هذا الدفتر له. وبمجرد ما شاهد الوثيقة صُدم الرجل، واعترف بأنه قام - أحيانا - بصنع قنابل، وأنه الآن لا يصنعها.

وأظهرتُ له مرة أخرى بعض المعدات التي وجدناها في بيته، وقال بأنه ليس سوى عامل بسيط، وأنه لا يعنيه ما يحدث لما يصنعه بعد ذلك لأنه لا يهتم بالسياسة. وذكر بأنه ليس هو الذي يشغّل القنابل ولا الذي يختار أهدافها، فهو - حسبه دائما -لا يتحمل أدنى مسؤولية فيما يحدث.

وباعترافاته هذه، حصلت على المعلومات الكافية التي تُسيغ لي القضاء عليه، وكنت أتمنى لو أن الاستنطاق توقف.

غير أني أردت معرفة الأشخاص الذين يتصلون به، ومن هم أولئــك الــذين يعطونه أوامر بالصنع، وما هي أهداف القنابل المصنوعة أخيرا.

كانت ثمة دلائل تُظهر أنه يعرف عدة مسؤولين، وبأنه كان على علم بالأهداف التي توضع فيها القنابل.

أُجري الاستنطاق في مستودع صغير بمكان مُقفر، و لم أكن أملك سوى حنفية وأنبوب سقي، وكان الرجل جالسا على كرسي وكنت قبالته.

وصوّب عينيه في عينيّ، وابتسم ابتسامة تحدي.

وعندما فهمت بأنه لا يريد أن يتكلم، قررت اللجوء إلى استعمال الماء ونبّهت رجالي الذين قاموا بإحكام وثاق يديه خلف ظهره وأدخلوا الأنبوب في فمه.

كان الرجل يختنق ويقاوم، ولكنه لم يرد التكلم، فلقد كان يظن أنــه ســيُقتل سواء اعترف أم لم يعترف، ولهذا فضّل عدم خيانة أحد. وربما يكون قــد حــضّر نفسه فترة طويلة لمثل هذه المواقف، مثلي تماما، عندما أذهب في مهمة.

ولكنني لم أتعرض على الإطلاق لمدنيين مثلما فعل هو، و لم أتعرض للأطفــال، لقد كنت أحارب رجالا مختارين.

و لم أُرد وعده بإخلاء سبيله لأن ذلك لن يكون صحيحا، وحــتى لــو قمــتُ بإطلاق سراحه، فإنه لن يكون في مأمن من رجال جبهة التحرير، ولهذا لم يكن ثمة شيء يخسره فعليا.

وتذكرت سكيكدة..

تذكرت أولئك الرهبان الذين عادوا من منجم الهالية وهم يبكون، على الــرغم من رؤيتهم للجثث من قبل، واضطررنا إلى سقيهم جرعات من (الويسكي) لكــي يعودوا إلى المنجم لجمع الأطراف المبعثرة من جثث الأطفال أملا في إعادة تجميــع الأجساد كاملة.

وسألني أحد رجالي قائلا:

– هل نضع المنديل على وجهه؟

وأجبته:

- نعم، ولكن برفق.

ووضع أحد الضباط المنديل فوق وجهه، وقام آخر بتبليله حتى يحجب الهـــواء، وانتظرا بضعة ثوان.

وعندما نزعا المنديل، كان الرجل قد فارق الحياة.

وخرجت لأقوم بإحضار طبيب كنت في وفاق معه، لأننـــا درســـنا في نفـــس الثانوية بـــ (بوردو).

وقلت له مموها:

- كنت أتحدث مع هذا السجين، وفجأة حدثت له أزمة. لقد أخـــبرني بأنـــه مريض بالسل، هل يمكن لك مداواته؟

- تقول إنك كنت تتكلم معه، وأنا أرى وجهه ينضح ماء.. هل تهزأ بي؟

- أنا لا أسمح لنفسي بذلك.

- ولكنه ميّت!

وأجبته مضللا:

- ممكن، ولكنني عندما ذهبتُ لإحضارك كان لا يزال على قيد الحياة.

ولما أصر الطبيب، انفجرت في وجهه غاضبا وقلت له:

- وماذا تريدني أن أقول.. بأنني قتلته؟ هل يعجبك أن أقول لك هذا؟ أتظن أن هذا يُشرفّني؟

- لا، ولكن لماذا أحضرتني إذا كنت تعلم أنه ميت؟

ولم أجبه بشيء.

وفهم الطبيب أخيرا بأنني أحضرته لكي يُرسل الرجل إلى المستشفى، وأتخلص أنا من هذه الجثة التي لم أعد أطيق النظر إليها.

بن مهيدي

في مساء 10 فبراير 1957، اهتزت العاصمة على وقع ثلاث انفجارات لم يفصل بينها سوى بضع دقائق.

انفجرت قنبلتان أثناء مقابلة في كرة القدم بملعب الأبيار وخربتا مدرجاته، وكانت الحصيلة 11 قتيلا و56 جريحا في حالة خطيرة، أغلبهم تعرّض للتشويه.

ويوما بعد ذلك، في نفس اللحظة التي أعدم فيها (فيرنان إيفتون)، صب (ماسو) جام غضبه علينا أنا و(ترانكيي) وكأننا المرتكبون الفعليون لهذه الجرائم، وقال:

- ما الذي أسمعه أيها الأوغاد، أهديتم لنا قنابل في هذه المرة!

كان (ماسو) يتكلم بطريقة استنتاجية، لقد وُجدنا من أجل القضاء على جبهة التحرير، فإذا حدث وأن انفجرت قنابل، فإن ذلك يعني أننا نحن المخطئون. وكنا نعتقد انطلاقا من مهامنا نفس الشيء، وهذا ما يفسر غياب الضمير الوازع في عملنا.

وزادت هذه العمليات من عزيمتنا، وأسبوعا بعد ذلك، في ليلة 15 إلى 16 فبراير، قمنا بإلقاء القبض على (بن مهيدي).

لقد تحصلنا على عنوانه، وتم تبعا لذلك إيقافه من طرف الوحدة الثالثة للمظليين التي يقودها (بيجار)، تحت إشراف (جاك ألير) ضابط استعلامات هذه الوحدة. وبقيت هذه المعلومة المهمة سرا لمدة أسبوع كامل.

كان (بن مهيدي) - دون أدنى شك - المسؤول الرئيس عن كل العمليات الإجرامية بصفته البطل الأول في معركة الجزائر، وبصفته الرقم واحد للجنة التنسيق والتنفيذ التي أنشئت من أجل تعويض فريق (بن بلة).

وطمأن (بيجار) سجينه وعامله باهتمام واحترام. وطفقا يتحدثان ليالي بأكملها وجها لوجه، وهما يحتسيان قهوة.

وأراد (بيجار) استغلال التشاحن القديم الذي حصل بين (بن مهيدي) و(بن بلة)، وفعل ذلك بالحديث عن تفوق (بن بلة) وتحسيسه بأنه ليس سوى بديل مؤقت. وهكذا بدأ السجين الكلام دون أن يشعر، وكان (بيجار) يلعب دور الرجل الذي لا يُصدّق ما يقوله (بن مهيدي)، وكان (بن مهيدي) مضطرا - تبعا لذلك - لإعطاء معلومات إضافية من شأنها إثبات أنه الرجل الأول في جبهة التحرير حقيقة. و لم يكن يتحدث سوى عن مجال يعتقده صغيرا، وهو ما يتعلّق بنظام التموين والتنظيم الخاص بجبهة التحرير، ولكنّ هذه المعلومات كانت ثمينة جدا.

وشرع (بيجار) و(بن مهيدي) في مقارنة وحدتيهما ونظاميهما وكأنهما صديقان حميمان.

ووجد (بيجار) نفسه منساقا في هذه اللعبة وبدأ يشعر بصداقة حقيقية تجاه زعيم جبهة التحرير الذي لم يُعذَّب على الإطلاق. وكان يمكن لعلاقات الثقة بين الرجلين أن تفتح المجال واسعا لمشاكل عويصة.

كان (بيجار) يقول بأنه يجب استعمال (بن مهيدي) لأنه يمكن له أن يقنعه بذلك، وبدأ (ماسو) يقلق من ذلك.

و لم تكن الطريقة التي عومل بها (بن مهيدي) لتروق الجميع.

وعين (ماسو) القاضي (بيرار) في قيادة القوات، وكان مكتبه متواجدا بالقرب من مكتبي - وشغل (بيرار) في نفس الوقت كما ذكرنا منصب قاضي التحقيق مكلف بإعلام مكتب حافظ الأختام (فرنسوا ميتيران) - ولهذا كان على اطلاع بما يجري عندنا دون المرور على الوسائل الرسمية.

كان (بيرار) مضطربا بسبب توقيف (بن مهيدي)، و لم يتوقف لحظة عن الحديث حوله.

وسألني صباحا:

- ولكن، ما الذي يمكن أن نفعله بـ (بن مهيدي)؟

- لا يهمني ما الذي يمكن فعله به، فأنا لم أساهم في إيقافه، فالأمر يتعلق بـ (بيجار).

- ولكن يحدث لك أن تتدخل في كل شيء، أليس كذلك؟

- لماذا؟

- أردت فقط معرفة ما إن فتشته.

- لست أنا من يقوم بذلك.

- هذا ما كنت أعتقده، إذا لم تقم بتفتيشه، فإنك لم تنتزع منه قرص السم الذي يحمله معه.

- ماذا تقول؟

وقال (بيرار) وهو يضغط على كل كلمة تخرج من فمه:

- إنني لن أُعلّم مثلك بهذا.. أنت تعلم أن كل الزعماء يحملون أقراصا من السم القاتل.

لم يكن لما طلبه مني (بيرار) - ممثّل العدالة - أن يكون واضحا أكثر من هذا، ولذلك أجبته بنفس النسق، قائلا:

- وإذا فرضنا مثلا، سيدي القاضي، أننا قمنا بتفتيشه و لم نجد عنده قرصا من السم، هل عندك فكرة عن الكشك الذي يبيعه لأنهم نسوا وضعه في جملة أدواتي الخاصة.

و لم يغتظ القاضي.

ثم أردف قائلا:

- هذا من شأنك، تدبّر أمرك لأنك محترف.

وتوجهت نحو الدكتور (ب)، وهو جراح كنت أنا و(مايير) على معرفة خاصة به، وكنت أعلم أنه رجل ثقة. وأفهمته أننا نبحث عن سم لكي نمكّن شخصية كبيرة في جبهة التحرير من الانتحار. وسجّل الطبيب مباشرة اسما وعنوانا في ورقة بيضاء وقدمها لي، قائلا:

- اذهب إلى هذا المكان من قبلي، وستُعطى ما تريده.

وذهبتُ إلى العنوان المذكور، وهو صيدلية متواجدة بالعاصمة، حاملا معي هذه الوصفة الغريبة.

كان الصيدلي من الأقدام السوداء، وابتسم ابتسامة خفيفة عندما أخبرته بسبب بحثي عن السم، وقال لي:

- هل أنت مستعجل؟

وأجبت وكأن الأمر لا يهمني كثيرا:

- لا أبدا..

- إذن تعال غدا صباحا في الساعات الأولى.

وفي الغد، قدَّم لي الصيدلي زجاجة سم تحوي حوالي 75 سنتي لترا.

- ولكنني أحتاج قرصا وليس زجاجة.. لن أقدمه له هكذا ليشربه.

- تدبَّر أمرك فهذا كل ما عندي، ليس أمامك سوى إحكام مسكه، وسترى بأن هذا المحلول لا يرحم.

خبأت هذه القارورة مدة طويلة في مكتبي بالمحافظة، وهو المكتب الذي يحاذي مكتب المحافظ (باري)، وكان البعض يعرف ماهيتها، وأصبحت بالتالي موضع تنكيت منهم، كأن يقول أحدهم مثلا:

- اسمع (أوساريس)، هل أنت مستعد دائما لدعوتي للشراب؟

وقام (غارسي) بوضع الزجاجة أمام زجاجة الخمر الذي جلبه من مصر، وترك أحد الزوار مرة يختار ما يشربه بنفسه، فوقع اختياره على زجاجة السم وهو لا يدري، ولم ينبهه (غارسي) إلا في اللحظات الأخيرة وهو جد مسرور بنجاح حيلته.

وفي أحد الأيام، توجهتُ صباحا نحو مركز قيادة (بيجار) لأقابل بن مهيدي، وكان (بيجار) رفقة معينه (لونوار).

وتم إحضار زعيم جبهة التحرير.

وأحضر أحد الجنود الحليب والقهوة للجميع.

كان (بيجار) يريد أن يُظهر لي أنه يتحكم في الوضع جيدا، وأنه فاز بثقة سجينه، غير أنه بدا جد قلق، فهو كان يعلم أنه يجب عليه إقناعي بأن (بن مهيدي) يقبل التعاون معنا، وهذا غير معقول لأن الأوامر صدرت بقتل زعماء جبهة التحرير، وأنا هنا لأجل القيام بذلك، وبدأت أظن أن (بيجار) استهلك ما عنده ولا يمكنه فعل شيء آخر، وسأل سجينه:

- قل لي (بن مهيدي)، ما رأيك في وحدتي؟

وأجابه (بن مهيدي) مبتسما:

- أعتقد أنها تعادل ثلاثمائة ألف رجل..

- وما رأيك في عملية توقيفك؟

ولم يعرف (بن مهيدي) ما يجيب به.

وقرر (بيجار) لعب الورقة الأخيرة، فقال موضّحا:

- هل لديك شعور مّا بأنهم خانوك؟

- ومن يخونني؟

- رفقاؤك في لجنة التنسيق والتنفيذ، فهم جميعا قبائليون وأنت عربي.

وفهم (بن مهيدي) أن (بيجار) يريد إنقاذ حياته، فابتسم ابتسامة تأسُّف، ثم قال:

- لم يخُنّي أحد حضرة العقيد.

وفقد (بيجار) ضبط أعصابه نوعا ما، وقال:

- وما الذي فعلناه لكي نُلقي القبض عليك؟

- لقد كنتم محظوظين.. وفقط.

الصحيح في الحكاية هو أننا تتبعنا ابن الملياردير (بن شيكو) الذي كان يملك مصنعا كبيرا للتبغ بالجزائر العاصمة، وكان يُسيّر أموال جبهة التحرير في نفس

الوقت. وعندما أوقفنا ذلك الابن، شرع في ذكر كل ما يعرفه، ومن بين ذلك عنوان (بن مهيدي).

وأراد (بيجار) – مرة أخرى – إنقاذ سجينه، فقال:

– ولماذا لا تعمل عندنا.. ألا ترى أن تقرُّبك من فرنسا يخدم بلادك؟

– لا أظن ذلك.

وختم (بيجار) كلامه رافعا كتفيه:

– ظُنّ ما تشاء، أما أنا، فإنني أؤمن بفرنسا الكبيرة.

لم يُرد (بن مهيدي) التعاون معنا، و لم يكن لـ (بيجار) أن يتجاهل نتائج هذا الرفض.

كانت الشرطة القضائية بقيادة (بارا) و(جيفودان) تريد (بن مهيدي) بشدة، ولكن (بيجار) رفض رفضا قاطعا تسليمه للشرطة، ظنا منه أنهم سيعذبونه لا محالة.

كان (بارا) يقول بأنه يمكن اتهام (بن مهيدي) بقتل خصوم جبهة التحرير في الغرب الجزائري، ولكن هل كان (بن مهيدي) ليقر بذلك؟

لقد كنا نعلم أنه بخبرته يُعتبر مسؤولا عن أغلبية العمليات الإجرامية، وهو يستحق الإعدام، عشر مرات بدل إعدام واحد، ولكننا لم نكن نتيقن لجوء القضاء إلى هذا الحكم.

وفي 3 مارس 1957، تحدّثنا في هذا الأمر طويلا مع (ماسو) بحضور (ترانكيي). وتوصلنا إلى نتيجة مفادها أن محاكمة (بن مهيدي) عن طريق القضاء أمر غير مرغوب فيه، لأنه كان سيُحدث صدى دوليا. كما أنه كان علينا ربح الوقت لأننا كنا نأمل في توقيف كل أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ التابعة لجبهة التحرير.

و لم يخن (بن مهيدي) رفقاءه، ولكننا عثرنا على معلومات ثمينة في الوثائق التي كانت بحوزته.

وسألني (ماسو):

- ما هو رأيك؟

وأجبته:

- أنا لا أرى لماذا يكون (بن مهيدي) أفضل من الآخرين، وفي مجال الإرهاب لا يثيرني القائد أكثر من المُنفّذ البسيط. لقد قتلنا كثيرا من الشياطين البؤساء الذين يُنفّذون أوامر مثل هذا الرجل، وها نحن نتلكأ منذ قرابة ثلاثة أسابيع من أجل معرفة ما الذي سنفعله فقط!

- إنني أوافقك تماما، ولكن (بن مهيدي) لا يمر دون إثارة الانتباه، ولهذا لا يمكن القضاء عليه بمثل هذه الطريقة.

- لن نتركه للشرطة القضائية، فإنهم سيلجأون إلى تعذيبه حتى يعترف، وأنا رأيته وأعرف أنه لن يتفوّه بشيء. وإذا أُجريت المحاكمة و لم يعترف بشيء، فإنه سينجو حتما، وجبهة التحرير من ورائه.

وواصلت قائلا:

- اتركوه لي قبل أن يتمكن من الهرب، وهذا ما يهددنا فعلا إن بقينا على ترددنا هذا.

وقال (ماسو) وهو يطلق زفرة:

- تصرّف كما ترى وافعل الأفضل، وسأقوم بالتستر عليك.

وفهمت بأن (ماسو) تحصّل على الضوء الأخضر من الحكومة.

أنا هو الذي تسلّم بن مهيدي ليلة بعد ذلك في (الأبيار). وأُعلم (بيجار) بذلك فتدبّر أمره لكي يكون غائبا وقت تسليمه.

ووصلت بسيارات (جيب) وشاحنة وبرفقتي بضعة عشر رجلا من فريقي الأول وهم مدججون بالسلاح.

وكان النقيب (ألير) هو المداوم حينها، وقام بصف فريق صغير من رجال وحدته، وطلبت منه إحضار (بن مهيدي) وتسليمه لي.

- اعرضوا الأسلحة!

كانت هذه هي الكلمات التي وجّهها النقيب (ألير) لفرقته عندما خرج (بن مهيدي) من المبنى.

وتفاجأت عندما رأيت فرقة المظليين التابعة للوحدة الثالثة تقوم بتحية الشرف الأخيرة لزعيم جبهة التحرير المهزوم. لقد كان هذا هو التقدير الذي قام به (بيجار) للرجل الذي أصبح صديقه.

وأزعجني هذا العمل الاستعراضي المبني على المشاعر نوعا مّا، وحينها فقط عرف (بن مهيدي) ما الذي ينتظره.

وأدخلناه الشاحنة، وتوجهنا بسرعة مُفرطة لأن كمينا تحظّره جبهة التحرير لتحريره كان جدّ محتمل.

وقدَّمتُ تعليمات صارمة إلى ضابط الصف المكلف بحراسة زعيم جبهة التحرير الوطني، وقلت له:

- إذا تعرّضنا لهجوم مّا، فاقض عليه مباشرة حتى وإن خرجنا سالمين، أطلق عليه النار ولا تتردّد.

وتوقّفنا في مزرعة منعزلة كانت وحدتي تقيم فيها على بعد بضعة وعشرين كيلومترا جنوب العاصمة، يسار الطريق. وكانت تلك المزرعة إعارة من طرف أحد الأقدام السوداء، وهي تحوي بناية متواضعة لا تتجاوز الطابق الأرضي، وكان فريقي الثاني ينتظرني هناك.

كانت الوحدة الأولى للمظليين تحوي بضعة وعشرين رجلا، وكان بعضهم ممن يؤدون الخدمة العسكرية، ولكنهم كانوا أهلا للثقة. وكان النقيب (ألير) المدعو (تاتاف) هو المسؤول عنهم، وكان جد مخلص وشرحت له ما الذي سيجري. وأخبرته بأنه يجب على رجاله تهيئة مكان من أجل (بن مهيدي)، وذلك أن المزرعة ليست مهيأة لذلك، فهي تحتاج إلى تنظيف ونقل لأكوام التبن الموجودة هناك.

وفي نفس الوقت، قمنا بعزل السجين في غرفة مهيأة سلفا، وكان أحد رجالي يقف قبالة بابها.

وبمجرد إدخال (بن مهيدي) إلى الغرفة، قمنا بتقييده وشنقه، بطريقة تفتح المجال لاحتمال حدوث عملية انتحار.

وعندما تأكّدت من موته، قمت بإنزاله ونقله إلى المستشفى.

وبناء على أوامري، ترك ضابط الصف المكلف بنقله المحرك مشتغلا و لم يوقفه، وذلك حتى يتسنى لنا الانطلاق مباشرة وبسرعة كي لا نُقدّم أدنى تفسير إذا حضر طبيب مصالح الاستعجالات.

وكنا في منتصف الليل تقريبا.

وناديت مباشرة بعدها الجنرال (ماسو)، وقلت له:

- حضرة الجنرال، إن (بن مهيدي) أقدم على الانتحار، وجثته موجودة بالمستشفى، وسأقدم لك تقريرا غدا صباحا.

وغمغم (ماسو) ثم أقفل الخط. لقد كان يعلم أن تقريري كان جاهزا منذ الزوال، كي أربح بعضا من الوقت.

وكان القاضي (بيرار) أول من قرأ هذا التقرير، وهو يصف بدقة كل تفاصيل الانتحار الذي سيقع في الليلة القادمة.

وبدا القاضي مأخوذا بما قرأ، وقال:

- إن هذا شيء جيد، هل تعلم أنه سينطلي على الجميع؟

ولكن التقرير - في الحقيقة - لم يصمد طويلا.

استقدمني (ماسو) إلى مكتبه أياما بعد ذلك، ثم قال:

- اسمع (أوساريس)، أنا في ورطة، وسأضطر لمقابلة الوكيل العام (روليكي).

وقلت مستغربا:

- ماذا! هل اجترأ فعلا على استدعائك؟

- نعم، من أجل الحديث عن انتحار (بن مهيدي).

- إن هذه وقاحة، ويمكنك ألا تجيبه نظرا لمنصبك. وسأذهب أنا شخصيا بما أنني أُمثّلك لدى المصالح القضائية.

وهكذا توجهت صوب الوكيل، وقلت له:

- سيدي الوكيل العام، أنا أمثل الجنرال (ماسو)، ونظرا للمنصب الذي أشغله، فأنا على دراية كبيرة بمُلابسات وفاة (بن مهيدي). بل إنني حررت شخصيا التقرير الذي اطلعتم عليه.

وانفجر الوكيل العام غاضبا وهو يقول:

- نعم جيد، فلنتكلم عن تقريرك. إن كل ما تتحدث عنه في هذا التقرير هو مجرد كلام فقط، ولا يوجد ثمّة أدلة. ما هو الشيء الذي تُقدّمونه لتُثبتوا ما تقولون، معاشر العسكريين؟

وأجبته قائلا:

- نيتنا الطيبة.

كنت أعلم أن صفع (روليكي) كانْ أهون من هذا الجواب.

وبدأ يكرر وهو يخنق رقبته:

- نيتك الطيبة! نيتك الطيبة بصفتك عسكريا طيبا أم ماذا؟

ولبست قبعتي ثم حييت الوكيل العام بقرع العقب، وخرجت.

ولم نسمع مرة أخرى عن هذا الوكيل العام.

كان موت (بن مهيدي) ضربة مصيرية بالنسبة لجبهة التحرير في الجزائر العاصمة، وبدأت العمليات الإجرامية تقل، وشرع أغلبية المتمردين في الانسحاب نحو الأطلس البليدي.

وقمنا باستعمال المزرعة التي أُعدم فيها (بن مهيدي) مرات أخرى، وطلبت من بعض رجال الوحدة حفر حفرة كبيرة، وتم دفن أكثر من عشرين جثة فيها.

الأستاذ بومنجل

أُعلمت الوحدة الثانية للمظليين تحت قيادة (فوسي فرانسوا) باغتيال ثلاثة فرنسيين، وهم زوجان شابان وطفلهما الرضيع، في جنوب العاصمة، في حين كانوا يتنزّهون فوق دراجة. كما تمّت الوشاية بالقتلة – الذين كانوا من المسلمين المنحرفين – من طرف مسلمين آخرين، وتم استنطاق السجناء من طرف (د)، ضابط استعلامات الوحدة المذكورة.

واعترف القتلة قبل إعدامهم بأن هذا الاغتيال قد تم بأمر وبتمويل أحد أبرز المحامين في الجزائر العاصمة، ألا وهو (علي بومنجل) الذي أراد بهذه العملية الاستعراضية تبديل أسطورة الإرهاب بصورة المثقف العالمي التي كانت تجري في عروقه.

وكان (بومنجل) – مثل قياديي جبهة التحرير الآخرين، ومن بينهم (ياسف سعدي) – مغتاظا من الشعبية التي يحوزها قاطع الطريق (علي لابوانت) الذي بدأ يُعتبر (روبن وود) الجزائري، حيث كان ينجو دائما من دورياتنا بالتخفّي في زي نساء.

وكان (بومنجل) مسجلا في قوائمنا، وكنا نعرف أيضا أنه متعاطف مع جبهة التحرير الوطني، ولكن نظرا لعلاقاته الكثيرة التي كان من بينها عدة أعضاء من الحكومة من أولئك الذين يلعبون على الحبلين، لم يقربه أحد.

وتم إلقاء القبض عليه أياما قبل إيقاف (بن مهيدي)، وأحدث ذلك ضجة كبيرة.

وكان للأستاذ (بومنجل) أخ يعمل في سلك المحاماة مثله أيضا، حيث قام بإبلاغ النخب الباريسية.

وبعد محاولة انتحار فاشلة كلفته قضاء عدة أيام في المستشفى، صرّح (بومنجل) دون صعوبة ودون أن يتعرض إلى أي ضغوط كانت أو أدنى عنف، بدوره في العملية التي نُسبت إليه، حيث أعار منفذيها مسدسه الخاص من طراز (7.65).

كما صرّح أنه كان يشغل منصبا هاما في صفوف جبهة التحرير، وذلك لأنـــه كان ابتداء أحد مسؤولي منظمة الجزائر، وكان مكلفا بإجراء الاتصالات بين جبهة التحرير والدول التي كانت تساعدها، ولهذا كان يشغل منصب وزير للخارجية - غير الشرعي - للتمرد.

وبما أن (بومنجل) كان بارزا، فإنه لم يُتخذ في حقه أي قرار حتى بعد أســـبوع من اعترافه، وكان لا يزال في يد الوحدة الثانية للمظليين.

ونظرا لهذه الأهمية، كان الحل الأقل مجازفة هو تسليم المحامي إلى العدالة، وهذا ما كان يضمن عدم نيله جزاءه كما يستحقه، ولم نتمكن من إدانته بشيء ســـوى توفير السلاح للإرهابيين، وكان هناك تواطؤ واضح ومعترف به بالقتل، غير أنه لم يكن هناك شك أنه بمجرد مثوله أمام القضاء فإنه سوف يُطلق سراحه بعد أن يجري أخوه بعض المكالمات الهاتفية.

وكان يجب علينا أن نتخذ قرارا حاسما.

وفي 23 مارس 1957، قمنا بمشاورات طويلة مع (فوسي فرانسوا) و(ترانكيي) و(ماسو)، لنعرف ما الذي يمكننا فعله به.

ولم يكن المحامي في نظري سوى مرتكب جريمة قتل، رغم علاقاته مـــع كبـــار المسؤولين التي لم تكن لتؤثّر فيّ، ولم أكن أرى الأمر سوى من هذه الزاوية فقط.

وبما أن الحديث كان يدور في فراغ، نفد صبري وخرجت، وحينـــها التفـــت (ماسو) إليّ وصوّب عينيه نحو عينيّ وقال بحزم:

- (أوساريس)، ممنوع أن يهرب السجين.. مفهوم؟

وعند سماعي هذه الكلمات، توجهت مباشرة إلى الأبيار في نهج (كليمونصو)، أين كان (بومنجل) موقوفا. في منطقة مليئة بالمباني، كان بعضها متـــصلا بـــبعض بواسطة جسور صغيرة في سطوح الطابق السادس، وكانت زنزانـــة (بومنجـــل) متواجدة في الطابق الأرضي.

وتوجهت نحو مكتب الملازم (د) الذي بدا مندهشا حين رآني، ثم قال لي:

- ما الذي يمكن أن أفعله لك حضرة القائد؟

- لقد كنت في اجتماع مطوّل مع الجنرال (ماسو)، وحسب ظني عند الخروج من هذا الاجتماع، فإنه يجب أن لا ندع بومنجل في هذه البناية التي يوجد بها حاليا.

- ولماذا؟

- لعدة أسباب.. يمكنه أن يهرب مثلا، فكّر قليلا.. إن (ماسو) سيكون غاضبا إذا حدث ذلك.

- وأين يجب أن نضعه إذن؟

- لقد فكرتُ في ذلك جيدا، وأرى أنه من الأحسن أن يحوّل إلى المبنى المجاور، ولكن احذر.. يجب أن لا تمر عبر الطابق الأرضي لأن هذا سوف يجلب الأنظار.

وجحظت عينا (د) الذي لم يفهم قصدي، وإن بدأ دون شك في استشفافه، وقال:

- حضرة القائد، قل لي بالتفصيل ماذا عليّ فعله؟

- إن هذا شيء بسيط، قم بإحضار سجينك، ولكي يتم تحويله إلى المبنى المجاور عليك اجتياز الجسر المتواجد في الطابق السادس، وأنا سأنتظر في الأسفل إلى حين فراغك من التحويل، هل فهمتني الآن؟

و هزّ الملازم (د) رأسه دليلا على الاستيعاب.

وبعد فترة، رجع (د) لاهثا ليخبرني بأن (بومنجل) سقط من الطابق السادس، وقبل أن يرميه من أعلى الجسر، قام بصرعه بضربة مقبض قادوم وجهه صوب قفاه.

وقفزت إلى سيارة (جيب) ورجعت إلى (ماسو) والآخرين الذين كانوا لا يزالون مستغرقين في حديثهم.

وقلت:

- حضرة الجنرال، لقد قلت لي بأنه لا يجب لـ (بومنجل) أن يهرب، اطمئن إذن فإنه لن يهرب لأنه - ببساطة - انتحر.

وأصدر (ماسو) - كالعادة - غمغمة، وغادرتُ المكان.

كان لوفاة (بومنجل) صدى كبير، وأُسيل من أجل ذلك كثير من الحـــبر، وتم اللجوء إلى قمة النفاق، لأن الحكومة - مثلما هو الحال في ظروف كهذه - أمرت بإجراء كل أنواع التحقيقات وكتابة مختلف التقريرات، وتمت مناقشة ذلك حتى في المجلس.

وكنت على علم بالحملات التي تقودها النخب الفكرية والثقافية الباريسية ضد التعذيب، وتوجه فيها أصابع الاتهام صوب الجيش الفرنسي، ولم أكن أرى ذلك إلا طريقة من طرق مساندة أعمال جبهة التحرير.

ولكن هذا "الانتحار" - الذي لم ينطل على الذين يعرفون ما يجـــري - كـــان إنذارا موجها لجبهة التحرير ولكل المتعاطفين معها.

لم نكن في البداية نتعرض إلا للصغار، أما الآن، فـــإن الأمـــر أصـــبح يتعلـــق بالوجهاء، وفهم كثير من الناس أن (بومنجل) كان على صلة بأناس من فرنسا، أين كان بعضهم يلعب دورا حيويا ومهما في التمرد الجزائري.

وبين وجيه مسلم ووجيه فرنسي، لم يكن هناك غير خـــيط واحـــد، وكنـــت مصمما على قطعه. وكان (ترانكيي) يشاطرني الرأي.

وقررت نتائج تشريح جثة (بومنجل) أنه مات بسبب السحق، وأن جـــسده لم يحو أي دليل على استعمال العنف ضده، ولم توجه إليّ أي تهمة قـــط، وأقـــر (د) الرواية الرسمية التي تخلُص إلى الانتحار غير المفسَّر للمحامي الجزائري.

وفي الوقت الذي مات فيه (بومنجل) وما أعقبه مـــن تـــصرفات هـــستيرية في الأوساط السائدة لجبهة التحرير، بدأتُ أفكر في الاهتمام بـــ "حاملي الحقائب"[19]، ولم يكن هناك من سبب لمعاملتهم معاملة متميزة عن المسلمين.

وأوشكنا على الانتصار في معركة الجزائر.

وكان علينا أن نعمل في قلب فرنسا من أجل التخلّص نهائيا من جبهة التحرير.

[19] يُقصد بهم الفرنسيون الذين يحملون الحقائب المليئة بالأموال التي تجمعها جبهة التحرير من فرنسا ليدخلوها إلى الجزائر.

معركة ناجحة

في ربيع تلك السنة، كتبت جريدة (لوموند) في صفحتها الأولى العنوان التالي: "الانتصار في معركة الجزائر"، غير أن ذلك لم يكن صحيحا بإطلاق.

لقد هزمنا جبهة التحرير في العاصمة، وكنا نعلم ذلك لأنه - وببساطة - لم يعد يحدث شيء، فلم يعُد هناك عمليات إرهابية، وصارت التوقيفات جد نادرة. وكنا نرجع في بعض الليالي خاليي الوفاض. وصارت الجزائر مكانا غير آمن بالنسبة للمتمردين الذين فضّلوا الاحتماء في جبال الأطلس.

وعثرت على رسالة مكتوبة بالفرنسية من طرف قائد من قواد "الفلاقة" جاء فيها: "أخي العزيز، أنا مضطر لمغادرة القصبة لأن (ماسو) ربح هذه الجولة، ولكننا سننتقم من هذا الوغد".

وأظهرت هذه الرسالة والمقال المحرر في الجريدة إلى (ماسو) بفخر واعتزاز، وقرر أن يُقدّمنا - أنا و(ترانكيي) - إلى (لاكوست)، وتم ذلك فعلا.

غير أن زعماء جبهة التحرير لم يغادروا كلهم الجزائر العاصمة، وذلك أن أغلبهم، وهم من سكان المدينة المهمّشين، لم يُقرّروا الالتحاق بالجبل، وصاروا يكابدون العيش باحتراف أعمال صغيرة من بينها السرقة، ولهذا فهم لن يرحلوا إلا إذا أغلقت كل الأبواب في وجوههم، وكان علينا أن نتتبّعهم ما داموا قريبين. و لم يكن علينا سوى تتبع طرق تقود إليها بعض الحرف المهمة، كالبنّائين مثلا.

لقد قام (بيجار) بجرد قائمة بمساعدة المعلومات والسجلات التي قدمتها المحافظة لنا. وكان البناءون مطلوبين كثيرا من أجل صنع مخابئ للسلاح وإخفاء الشحنات المتفجرة التي توضع - غالبا - في قلب الجدران.

وقمنا بإجراء حملات مراقبة، وعندما نجد بنّاء يصرح بأنه لم يعمل منذ مدة طويلة ثم نجد أن يديه تُظهران أنه حديث عهد ببناء، فإننا نضيفه إلى قائمة المتهمين.

وفي الوقت الذي بدأت تظهر فيه ملامح النصر في معركة الجزائر، برز العقيد (غودار) إلى الواجهة فجأة.

إننا لم نر العقيد إطلاقا في المحافظة إبان الفترات الصعبة التي مررنا بها، ولكنه عندما علم أن الجنرال (ماسو) كلفني بتحضير نماذج خطابات من أجل الحصول على صليب الشرف العسكري، لم يتردد في رؤيتي.

كانت زيارته ملفوفة بحجة تحرير كلمة إلى محافظ شرطة لم أسمع به من قبل.

وقال العقيد بدهاء:

- هل فهمتني، إن هذا يُعينني.

- إذا كانت هذه الكلمة مهمة بالنسبة لك مثلما تقول، فما عليك إلا أن تحررها بنفسك ولا تطلب ذلك مني.

و لم يساهم هذا الجواب - قطعا - في تحسين علاقاتنا.

وكان ثمة ملف واحد يشغلني حينها.. إنه ملف الحزب الشيوعي الجزائري الذي لم نُزعجه منذ قضية (البازوكا). وكنت متأكدا من أن الشيوعيين لا يزالون يساهمون بنشاط في صنع قنابل ستنفجر حتما في يوم من الأيام.

ومن جانب آخر، فإن جريدة "صوت الجندي" كانت لا تزال تواصل بثها لحملات الدعاية المُغرضة.

وقرر (ماسو) بالتشاور مع الوحدات تخفيف الترسانة العسكرية المتواجدة بالمدينة، بحيث لا يتواجد في نفس الوقت سوى أعضاء وحدة واحدة، وفق مبدأ التناوب، ومن هذا أخذت منطقة (الجزائر العاصمة ـــ الساحل)، الواقعة تحت قيادة (ماراي)، أهمية كبيرة.

وفي شهر أبريل، سافرت (سوزان ماسو) إلى باريس، وتعرفت هناك على الأوساط المؤثرة في المجتمع المدني، وأُفهمت بأن زوجها سيؤمر بتخفيف حدته على جبهة التحرير.

وعند رجوعها، وصفت (سوزان) لزوجها النفسية المتواجدة بالعاصمة باريس.

وانزعج (ماسو) وقام باستدعائنا، أنا و(ترانكيي)، من أجل البوح بما يشغله والشكوك التي كانت تراوده، وتحدثنا في ذلك طويلا.

وقال (ماسو):

- إن الجميع متحفظ في باريس.

وسألته:

- وممّ يتحفظون؟

- من طريقة عملنا.

- لا تهتم بذلك، فأنت لست بباريس بل في الجزائر. إن الناس في باريس لا يعبأون بما يجري هنا، وأنت متواجد بالجزائر من أجل الحفاظ على الأمن، فلا تهتم بما يظنُّونه هناك.

كان للسيدة (ماسو) تأثير كبير على الجنرال، ويدخل في جملة هذا التأثير الحفاظ على النساء المناضلات بجبهة التحرير، واللواتي كُنّ يلعبن أدوارا خطيرة على الرغم من عددهن القليل. وكانت تظن أن رحمة بعض واضعات القنابل يمكن لها أن تساهم في ربح ود النساء الجزائريات.

وهكذا أخرجت (سوزان) المدعوة (جميلة بوحيرد)[20]، وهي طالبة بكلية الحقوق تم إيقافها في 09 أبريل 1957، من دائرة النظام العادي للحركة القمعية، على الرغم من اقتناعها بمشاركتها في هجمات عديدة. وواضح أنها كانت تخشى أن تقاد المتهمة إلى (فيلا الأبراج الصغيرة)، لأن كثيرا من الناس يعلمون - ومن أعلمهم (سوزان ماسو) - أنه لا يمكن للإرهابي المقاد هناك أن يأمل في رحمة مّا من طرفي، مهما كان جنسه، ومهما كان أصله أو ديانته.

وتم تسليم الشابة إلى النقيب (جان غرازياني)، مساعد (لومير) في المكتب الثاني، وهو الذي كانت تعتبره (سوزان ماسو) مهذبا ورقيقا.

---

[20] يذكر المؤلف أن (جميلة بوحيرد) دلّت الجيش الفرنسي على مخبأ كبير للقنابل دون أن تتعرّض لأدنى تعذيب.

وكانت (جميلة بوحيرد) جد محظوظة، لأنني لن أتردد لحظة واحدة في قتلها لو كانت بين يديّ.

ولم يكن (غرازياني) رقيقا، غير أنه تظاهر بذلك وعامل سجينته بلباقة كبيرة. واشترى لها ملابس ثم قادها إلى مطعم الوحدة للغداء، أمام النظر الحاقد لزملائه.

وبفضل تدخل (سوزان ماسو)، كانت مناضلات جبهة التحرير تُحلن على العدالة بانتظام. ولهذا علمت أثناء انتهاء معركة الجزائر، وكنت قد التحقت بوحدتي، بأنه تم توقيف طبيبة في الجبل في نفس اليوم الذي اغتيل فيه أحد ضباطنا بوحشية كبيرة، غير أن (ماسو) كلّف نفسه عناء إرسال طائرة (هليكوبتر) من أجل نقلها من موضع اعتقالها.

وكنت أعتقد بأن الوقت لم يكن وقت تراجع ولين، بل على العكس من ذلك كان يجب علينا قطع الدعم الذي كانت جبهة التحرير تحصل عليه انطلاقا من فرنسا والانتهاء من مشكل جبهة التحرير، ثم أتفرَّغ بعد ذلك للحزب الشيوعي الجزائري.

وأردت أن أكون حيويا أكثر لدرجة أني بدأت في استشراف انتهاء هذه المهمة. وكنت أعتقد أن كل شيء سينتهي بالنسبة لي قبل فصل الصيف. وكلمت (ماسو) في ذلك ولم يمانع، بشرط أن أجد من يخلفني، ولم يكن ذلك سهلا لأن الجميع يعلم أن مهمتي كانت صعبة جدا، وأقل ما يمكن قوله فيها هو أنه لم يكن ثمة من يحسدني عليها. وإذا أُعلن في الوحدات البحث عن خليفة لي لم يتقدم لذلك أحد. ولهذا قمت - بسرية تامة - حضّ بعض رفقائي على استخلافي، غير أنهم رفضوا جميعا.

كنت في شهر مايو 1957 أقضي وقتا كبيرا في التحضير الدقيق لعمليات كنت أود القيام بها في فرنسا، وتكلمت في ذلك مع (ترانكيي).

وخططت بالتفصيل لعملية تهدف إلى اغتيال (بن بلة) ورفقائه العاملين بلجنة التنسيق والتنفيذ[21]، وذلك أن (بن بلة) كان مرشحا للعب أدوار حاسمة إذا نجحت جبهة التحرير في مساعيها. وكان اغتياله سيفتح لا محالة الباب واسعا أمام الصراعات الرهيبة داخل جبهة التحرير. وكان تحليلي هذا يصب في نفس المنحى الذي تصب فيه آراء الحكومة، وبالأخص (ماكس لوجون) و(بورجاس مونوري) و(لاكوست).

وتحصلت على المعلومات اللازمة حول ظروف إقامة زعيم جبهة التحرير ورفقائه، وهي إقامة وإن لم تكن فخمة، فإنها لم تكن أيضا متردية.

وتمكنت من إعادة تشكيل مخطط البيت الذي يقيمون فيه، ولم يبق إلا أن يقبل (ماسو) إيفاد خمسة أو ستة من رجالي لحراسة (بن بلة) لمدة أسبوع، ولم أشُكّ لحظة في إمكانية إقناعه.

كنا نريد إيهام الجميع بأن الانفجار الحاصل ناتج عن الغاز، وكان الانفجار سينسف البنايات ثم نختفي بعد ذلك مباشرة. وكنت سأقوم شخصيا بهذه المهمة بمساعدة الفرق التي دربتها بطبيعة الحال. وكان هذا التخطيط مبنيا على أساس أن معركة الجزائر قد انتهت، ولهذا كان عندي الوقت الكافي للتغيب بضعة أيام.

وأردت بالموازاة مع هذه العملية توجيه ضربة تقصم ظهر جبهة التحرير بالتعرض لشبكاته المالية، أي لحاملي الحقائب، حيث كان عندي محاورون غير شرعيين في باريس، وكانت فرقتي بالجزائر العاصمة مستعدة للعمل معي في الخفاء.

إن المال - كما نعلم - هو عصب الحياة. ولهذا كانت عمليات إغراق البواخر التي تموّن جبهة التحرير بالسلاح شيئا معتبرا، تماما مثل نصب الفخاخ لتجار الأسلحة كما كانت تقوم به مصلحة العمليات منذ ثلاث سنوات، غير أن منع جبهة التحرير من إرسال واستقبال المال اللازم لشراء هذه الأسلحة كان أكثر فعالية. وكان أغلبية المال المجموع يرد من فرنسا.

---

[21] وهم (حسين آيت أحمد، محمد خيضر، محمد بوضياف ومصطفى لشرف).

لقد كانت هذه التبرعات عبارة عن أموال العمال والتجار الجزائريين الذين يدفعونها كإتاوات في الأراضي الفرنسية. وكان أولئك الذين يرفضون الدفع يتعرضون للذبح أو لطلقات رشاش بمباركة بعض الفرنسيين المتعاطفين مع جبهة التحرير.

وكان المال يمر عبر شبكات حاملي الحقائب المملوءة بالنقود. وبطبيعة الحال كان يحدث أن تختفي حقيبة في الطريق، وكنا نعلم كل ذلك، غير أن أحدا لم يأبه لذلك في باريس، باستثناء قوة خاصة تتكون من رجال الشرطة الجزائريين المكلفين بالتعامل الخشن مع جبهة التحرير.

وكانت شبكة (جونسون) هي الأشهر في شبكات حمل الحقائب، وكان هناك غيرها يعادلها في المردودية، ولم تكن هناك نية سياسية حقيقية لتفكيكها، لأن جبهة التحرير لم تكن تتعرض لغير الجزائريين. وكانت هذه الأموال تسمح بشراء الأسلحة في بلجيكا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا. هذه الأسلحة التي تستخدم بعد ذلك ضد الجيش الفرنسي، وضد الأقدام السوداء، وضد المسلمين المعادين لجبهة التحرير.

وكان جزء من هذا المال يدخل الجزائر، ووجد (بيجار) مبالغ كبيرة عندما استدعى (بن شيكو)، وأرسل (ماسو) هذا المال إلى أعمال خيرية تتم في فرنسا لصالح الجالية المسلمة.

وكان من السهل رصد حاملي الحقائب، وذلك أنهم بسبب اعتقادهم بصحة فعلهم، وبكونهم يحظون بدعم المثقفين والصحفيين ذوي التأثير، وبسبب فخرهم واعتزازهم بما يقومون به، وما سيقومون به لسنوات أخرى، فإنهم لم يكونوا يتحرزون من شيء. كما أن الرأي العام الفرنسي كان لا يهتم كثيرا بالحرب الدائرة في الجزائر، باستثناء المسلمين المضطهدين في المصانع، وأولياء المجندين الذين أُرسلوا إلى الحرب.

لقد تحصلت على معلومات دقيقة، سواء فيما تعلق بشبكات حاملي الحقائب أو بأولئك الذين يقومون بدعمهم. وكان الأمر يتعلق ببعض المتعاطفين من أمثال (هيرفي بورج) و(أوليفيي تود) و(جيزال حليمي). وقدمت هذه الأخيرة خُفية إلى الجزائر وتمكنت من مقابلة (سوزان ماسو) التي كانت محامية مثلها. و لم نعلم بذلك إلا بعد فوات الأوان، واعتبرت ذلك إثارة لا تحتمل وذهبت أنا و(غارسي) لترصدها، غير أنها تمكنت من الإفلات.

وقمت كذلك بجرد قائمة تتكون من بضعة عشر شخصا يجب إيقافهم، وقمت بالتخطيط لتفاصيل العملية رفقة (ترانكيي). وكان يُفترض أن تتم العملية بباريس باستعمال فريق صغير، حيث نقوم باغتيال المستهدفين بالرصاص.

وحالت العمليات القاتلة ليوم الاثنين 03 يونيو 1957 دون تنفيذ هذه المهام.

كانت الهجمات موقّعة من طرف جبهة التحرير، حيث قام عمال مزيفون في مصالح الكهرباء والغاز أرسلهم فريق (علي لابوانت) بتفخيخ ثلاثة أعمدة كهربائية قريبة من محطات الباص وضبطوا توقيت الانفجار على فترة خروج العمال من المكاتب. ولقي ثمانية أشخاص مصرعهم، ومن بينهم ثلاثة أطفال، وجُرح ما يزيد عن مئة شخص. وأصابت هذه العمليات المسلمين والفرنسيين على حد سواء.

وبعد منتصف نهار الأحد 09 يونيو، انفجرت قنبلة بوزن 2 كيلوغرام تحت مصطبة أوركسترا مرقص يقع على بعد عشر كيلومترات شرق العاصمة، قرب منطقة (بوانت – بيسكاد)، وهو مرقص يرتاده في الغالب الأوروبيون.

كان الانفجار عنيفا وخلف تسعة قتلى وخمسا وثمانين جريحا، فيما تمزقت أشلاء الفرقة الموسيقية و لم نتمكن من العثور على قائدها، كما بُترت ساقا المغنية. وكانت هذه العملية هي الأكثر تأثيرا فيما شاهدته من قبل.

وغضب (ماسو) غضبا شديدا، لاسيما وأنه بعد دفن الضحايا اندلعت موجات عنف شديدة لم تكن معهودة من قبل، وكان يجب علينا حماية القصبة لتجنب حمام دماء، بل وربما الحريق الذي هدد به الأقدام السوداء من قبل.

وكانت الحصيلة في ذلك اليوم حوالي ستة قتلى وخمسون جريحا، أغلبهم من المسلمين.

وحدت بنا هذه العمليات التي حدثت بعد فترة هدوء إلى تقوية العمليات القمعية، وذلك بالبدء بالحزب الشيوعي الجزائري. فلقد كنا نعلم - بالتجربة - أن الحزب يحوي بين صفوف مناضليه مختصين في العمليات العنيفة وكيميائيين مكلفين بصنع قنابل، وكذا مُموّنين بالأسلحة مثل المرشح (مايو).

لقد كنت في السابق جدّ متأثر بقراءة كتاب (جان فالتان) المعنون بـ "بلا وطن
ولا حدود"، وكان الكاتب من أوروبا الشرقية، ومقربا من الأحزاب الشيوعية. ورسّخت هذه القراءة في نفسي قناعة مفادها أنه في الظاهرة الشيوعية، تحتل البناءات التنظيمية نفس المكانة - على الأقل - مع الأيديولوجيا التي تخدمها. وكانت معلوماتي عن تنظيم الأحزاب الشيوعية في العموم والحزب الشيوعي الجزائري على الخصوص تُظهر لي أن مختلف المصالح مفصولة بحواجز عمودية وغير قابلة للاختراق، بحيث لو أمكن لمسؤول مصلحة مّا مخالطة مسؤول مصلحة أخرى على أعلى مستوى، فإن الأمر لا يسير بالضرورة في نفس الاتجاه بالنسبة للمناضلين.

وكانت أبحاثنا ترتكز أساسا على الأعمال التي استغلت المعلومات التي أنشئت منذ بداية معركة الجزائر، بما في ذلك إحصاء السكان.

وكان يمكن إجراء عمليات مماثلة من طرف وحدات ليست تابعة للمظليين.

وفي يوم 10 يونيو، تمكّن ضابط برتبة مساعد في وحدات الأمن الجمهوري بمساعدة القوائم المحررة بناء على أعمال (روجيه ترانكيي)، من رصد سيارة فخمة يقودها الدكتور (جورج حجاج)، وكان هذا الطبيب مسجلا بصفته متهما بشغل منصب معتبر في قيادة الحزب الشيوعي الجزائري.

وقاد المساعد هذا الطبيب إلى أقرب مكتب للاستعلامات.

ولم يتأخر الدكتور (حجاج) في الاعتراف بأنه مسؤول ذو أهمية كبيرة، ولكنه أكد لنا بأنه لا علاقة تربطه بالعمليات الإرهابية، فهو لم يكن مكلفا سوى بمصلحة الدعاية التي تخدم حزبه.

واعترف في نفس السياق بوجود مصلحة عمليات، وأكد بأن قائدها هو (أندريه موان)، مثلما توقّعتُ منذ يناير الماضي.

وحدث وأن التقى (حجاج) به أثناء بعض الاجتماعات، ولكنه صرح بأنه عاجز عن تحديد مكانه، مثلما صرح بأنه عاجز كذلك عن تقديم أية معلومات عن مصلحة العمليات هذه.

واعترف (جورج حجاج) أخيرا بأنه وفي مجال حملاته الدعائية، كان يدير جريدة "صوت الجندي" التي زودنا بكل التفاصيل التي كنا نأملها عنها.

ولم تساعدنا هذه الاعترافات في مجال بحثنا عن واضعي القنابل، ولكنها مكنتني من تحقيق هدف كلفني به (ماسو).

وكان اسم (موريس أودان) يظهر في أوراق الطبيب. حيث كان هذا الاسم مذكورا في قوائمنا. وذكر (حجاج) عفويا بأن هذا الشاب المدرس للرياضيات يُعتبر إطارا من إطارات الحزب الشيوعي الجزائري، وكان يضع مترله في خدمة الحزب لإيواء العملاء، مما يعني بأنه يُمكن له إيواء مناضلين في مصلحة العمليات.

وأعطى (حجاج) عنوان (أودان) الذي كان يقطن في المقاطعة التي تقع تحت مسؤولية (شاربونيي)، وهو ما مكّن رجال الوحدة الأولى للمظليين من توقيفه.

وأُخطرتُ - بطبيعة الحال - بهذا التوقيف، وذهبتُ إلى المترل الذي كان (أودان)

لا يزال فيه على أمل أن أحصل على عنوان (أندريه موان).

وسقط (هنري علاق) بدوره بعد ذلك في الفخ المنصوب، عندما توجه إلى مترل (أودان).

لم يكن (أودان) ولا (علاق)، بالنسبة لي، على الرغم من كونهما مذكورين في القائمة يشكّلان أهمية كبرى.

وعاودت الذهاب إلى مترل (أودان) بعد توقيف (علاق)، وطلبت من (شاربونيي) استنطاق هذين الرجلين لمعرفة ما إذا كانا ينتميان لمصلحة العمليات في الحزب الشيوعي الجزائري، كما طلبت منه استغلال الوثائق ودفاتر العناوين المتواجدة عندهما لرؤية ما إذا كان اسم (أندريه موان) موجودا بها.

واختفى (أودان) مثلما هو معروف في 21 يونيو، وأثار ذلك فضيحة أدت إلى فتح تحقيق كبير.

أما بالنسبة لـــ (علاق)، فإنه ذكر استنطاقه في كتابه "السؤال"، ولقيته عندما تم توقيفه، ولكنه لا يذكر ذلك في كتابه على الرغم من أنه لا يحفل بذكر التفاصيل[22].

وكان لقضيتي (علاق) و(أودان) صدى كبير في فرنسا بسبب القراءة التي أعطاها الحزب الشيوعي وكذا الصحافة المؤيدة لجبهة التحرير الوطني.

وبلغتُ ستة أشهر منذ تحويلي، وكان تجاوز هذه الفترة يقودني حتما إلى استقرار دائم، وهو الشيء الذي لم أكن أريده.

لقد اعتبرت بأنني أديت مهمتي على أكمل وجه، وذلك لأن الإضراب قد تم كسره، كما تم استرجاع الملف، ولن يبلغ "صوت الجندي" مسامع أحد مرة أخرى، وأكثر من هذا، تم اغتيال (العربي بن مهيدي) و(علي بومنجل)، ورتبتُ الأمر لكي يلقى الباقون نفس المصير.

وتحصّل (غودار) بمساعدة (ماسو) على قيادة قطاع (الجزائر العاصمة - الساحل)، وهذا مكّنه - نسبيا - من الاطلاع على ما نقوم به من الأعمال. وكان هذا الوضع الجديد يحضُّني أكثر لكي أغادر عملي وأجد من يخلفني، ورشحت

[22] يظهر أن ثمة سبق قلم من المؤلف، ولهذا خانه التعبير، وكان ينبغي أن يقول ما يلي: "ولكنه لا يذكر ذلك في كتابه على الرغم من أنه يحفل بذكر التفاصيل"، وليس العكس.

النقيب (جاك دي لابوردوناي - مون لوك)، وكان يقود وحدة المشاة التابعة لـ (الصدمة 11) المستقرة في ضواحي الجزائر العاصمة.

لقد كان النقيب رفيقا في الهند الصينية، حيث كان ينتمي للوحدة الأولى للمظليين، وكان يوجد في حالة شائكة لأن (ديكورس) وضع اسمه على رأس القائمة التي يُحظر عليها الانضمام إلى أي وحدة من وحدات المظليين، وكان هذا يفرض عليه بالتالي مغادرة فريق المظليين والجزائر العاصمة في نفس الوقت، وذلك لكي يلتحق بالوحدة الرابعة والأربعين لجنود المشاة بمنطقة (تبسة)، على الحدود التونسية. وكان من مزايا تحويله إلى فريق الجنرال (ماسو) هو السماح له بالمكوث في العاصمة، وهو ما كان يحرص عليه من أجل ظروف خاصة، كما أنه يسمح له بالاحتفاظ بوضع "المظلي" الذي يحظى بمكانة كبيرة في قلبه.

في البداية، لم يكن (جاك) متحمسا لهذا الأمر، وقدمت الوحدة الأولى للمظليين إلى الجزائر العاصمة من أجل إجراء دوريتها، وعزمته في المطعم رفقة (بروسبير) و(مونيت مايير)، وشرعنا في البحث عن الحجج التي تقنعه بتولي هذا المنصب.

لم يكن التفاهم بيني وبين (غودار) ممكنا، ولهذا كان من المستحيل أن أُكمل هذه المهمة، ثم إن (غودار) كان يترعج من تتبعنا للشيوعيين، وكذا محاولة إقامة عمليات ضد فرنسيين. بل إنه تمكن من التخلص من (ترانكيي) الذي تحصل على أمر بالتوجه نحو مقر تحويله الجديد في الثماني والأربعين ساعة. وهكذا أرسلت له (لابوردوناي -مون لوك). وحصلت بين الرجلين مودة.

وبعد أسبوع من ذلك استخلفني (جاك) وتم كل شيء.

وتمكنت أخيرا من القول لـ (ماسو) بأنني وجدت من يخلفني، وأن معركة الجزائر من ثم كانت قد انتهت بالنسبة لي.

الهارب من الجندية

استقرت الوحدة الأولى للمظليين في منطقة (المنازل المربعـــة)[23]، واســـترجعتُ مهام قائد القوات الذي كنت أشغله في بداية السنة. وارتحت أخيرا، فالوحدة الـــتي عرفتها في الستة أشهر الأخيرة لم تعد محتملة، والآن سأذهب إلى قلـــب المعـــارك للمشاركة في الحرب، ومطاردة جبهة التحرير في الأطلس البليدي.

وأراد (باباي) اتباعي، و لم أستطع رفض طلبـــه. وفي العمليـــة الأولى، زودتـــه ببندقية وأمرته بالبقاء هادئا خلفي. بعد ذلك، سمعت دوي طلقة نارية وراء ظهري، ومر صفيرها قرب أذني، والتفتُّ خلفي فإذا بي أجد (باباي) مبتسما. لقد أطلـــق رصاصة فوق كتفي وقضى على عدوٍ لم أره.

وفي تلك الأثناء، كان آخر زعماء جبهة التحرير بالعاصـــمة ورؤوس الحـــزب الشيوعي الجزائري يسقطون واحدا تلو الآخر.

وخطرت لـــ (فولك) فكرة تعليق أسماء في كل زنزانة من الزنازين المتواجدة في أسفل فيلا (سيزيني)، وكتب في باب زنزانة فارغة اسم (أندريه موان)، وهو مـــا أدى إلى عدم تحفظ السجناء الذين ظنوا بأنه قد ألقي القبض عليه فعلا، وهكذا تم الاعتقال الحقيقي للزعيم الشيوعي في يوليو 1957.

وفي شهر سبتمبر، شرع (فولك) و(لابوردوناي) و(غودار) في العمـــل وفـــق المخطط الذي حضّرتُه بعناية فائقة للتقرُّب من (ياسف ســـعدي) بفـــضل عميـــل اخترق جبهة التحرير.

وتمكّنت وحدة المظليين الغرباء من محاصرة فيلا (ياسف) الذي دافع عن نفـــسه بإلقاء رمانة أدت إلى جرح (جان بيير)، ولكن الوحدة ألقت القبض عليه.

---

[23] منطقة (الحراش) حاليا.

واعترف (ياسف سعدي) مباشرة ودون تخويفه، وهو ما أنقذ حياته، وذكر من جملة ما ذكر عنوان (علي لابوانت) الذي كان يختفي في إحدى منازل القصبة.

لقد كانت شهرة (علي لابوانت) تُزعج (ياسف سعدي) مثلما كانت تُزعج من قبل (علي بومنجل).

ومن هذا المنطلق، تم تحديد مخبأ (علي لابوانت) وحوصر بسرية، وأُرسل فريق من الجنود من أجل إحداث شرخ في الجدار، ووضع الملازم الأول شحنة قوية من المتفجرات التي هدّت المخبأ إضافة إلى ستة منازل أخرى.

وتم التعرف على جثة (علي لابوانت) عن طريق وشم كان في رجله، كما تم القضاء على طالبة شابة كانت تعيش معه، وكذا طفل كان يقوم بدور عميل اتصالات.

وسجلت هذه الحلقة نهاية معركة الجزائر.

وفي تلك الأثناء، قدّم (بول تيتغن) حساباته وأعلن استقالته التي قُبلت هذه المرة. لقد كان يعتبر أن عدد الموقوفين ارتفع إلى أكثر من أربع وعشرين ألفا، وبجمع عدد الموقوفين في معركة الجزائر وطرح عدد أولئك الذين بقوا في المعتقلات أو أُطلق سراحهم، وجد (بول) أنه تم فقد 3024 شخصا.

وحصلت على تحويل إلى (بادن - بادن) في خريف 1957، بصفتي مختصا في الدعم الجوي، وعُدت مرات كثيرة إلى الجزائر تحت ذريعة تنظيم تربصات.

كان جيش التحرير الوطني قد حشد قوات معتبرة في معسكرات تونسية متواجدة على الحدود الجزائرية، وكان ذلك ذكيا لأن فرنسا اعترفت بالاستقلال الذاتي لتونس منذ ربيع 1956. وكانت الضربات توجه نحو مواقعنا الحدودية من هذه المعسكرات.

وفي بداية سنة 1958، أُسقطت طائرتان فرنسيتان من طرف المدافع المضادة للطيران التي يستعملها جيش التحرير، كما تم القضاء على مجندين بوحشية.

وكردة فعل على ذلك، تم في 08 فبراير 1958 تنظيم حملة جوية في الجهة الأخرى من الحدود، ولهذا السبب تم قصف قرية (ساقية سيدي يوسف) التونسية. وكان لهذا الحادث مخلفات دولية كارثية إلى درجة أن فرنسا اضطرت إلى تقبُّل الوساطة الأمريكية. ولهذا صارت الحدود التونسية غير قابلة للاختراق، وتمكّن جيش التحرير من مواصلة ضرباته دون أدنى عقاب. ومن جهة أخرى، انسحبت قوات جيش التحرير بما يكفي بعيدا عن الحدود لكي تعتقد أنها في مأمن من كل تهديد.

وبمساعدة طيار قادني سرا عبر طائرة (ت 6) إلى غاية الحدود قبل اختراق المجال الجوي التونسي، تمكنّا - رغم طلقات المدافع المضادة للطائرات - من شنّ عدة هجمات صاروخية ورشاشية ضد مواقع جيش التحرير. ولم تكن هذه الهجمات مذكورة رسميا على الإطلاق.

تزوج (باباي) بابنة أحد أفراد الحرس البلدي، وعندما كان الجيش الفرنسي يتأهب للرحيل سنة 1962، أخبره رفقاؤه القدامى في جبهة التحرير بأنهم لا يحقدون عليه، وأنه بإمكانه المكوث في الجزائر، ولكن عقيدا في الجيش الفرنسي أجبره على الركوب، هو وزوجه، في الباخرة الأخيرة.

وتم التعرف على (كمال إيصولح) وإيقافه من طرف جبهة التحرير، وقمتُ بإطلاق سراحه وترتيب خروجه من الجزائر بفضل ملحق عسكري أمريكي في الجزائر.

وفي خريف 1966، بعدما شغلت منصب معلّم في (فور بينينغ) و(فور براغ) للقوات الأمريكية الخاصة المتواجدة في (فيتنام)، وبعد عملي في قيادة القوات، التقيت وحدتي الأولى من المظليين التي رجعت إلى منطقة (بو) بنشوة غامرة، وأصبحت في هذه المرة قائدها خلفا لـ (كوكبورن) و(بروسبير).

وتم تنظيم حفل في المساء، فطلبتُ من الجوقة العسكرية عزف أغنية "الهارب من الجندية" من أجلي، إنها أغنية (بوريس فيان) التي كنت أترنّم بها أحد عشر سنة من قبل عندما كنت في طريقي إلى سكيكدة. لقد أصبحت الآن ملازم عقيد، و لم تكن شهرتي كأصيل تحتاج إلى بيان.

ودُهشت عندما رأيت أن هذه المبادرة لم تصدم أحدا، بل أعجبت ضباطا شبابا لم يعرفوا الجزائر.

وعندما رأيتهم يرقصون، تذكّرت (الهالية) و(فيلا الأبراج الصغيرة)، كما تذكّرت العمليات الإرهابية التي تعرّض لها الملعب، وجال بخاطري اسم (بن مهيدي) وكذا صور الأعمدة الكهربائية الملغّمة، وتذكّرت (بومنجل) و(ملهى الكورنيش)، وكل الليالي التي قضيتها في الجزائر.

لم أُحسَّ حينها بأي شعور بالندم، ولكنني تمنيت ثمّة أمانيّ لكي لا يجد أحد من أولئك الشباب نفسه مضطرا لأن يعمل ما اضطررت لعمله أنا في الجزائر من أجل بلدي.

الملحق

Les derniers témoignages du tortionnaire Paul Aussaresses

L'ORDRE DE TUER BEN M'HIDI EST VENU DE MITTERRAND

* Aussaresses révèle en détail les circonstances de l'assassinat du héros de la guerre de libération.

Dans Je n'ai pas tout dit. Ultimes révélations au service de la France, qui vient de paraître aux éditions du Rocher, le général Aussaresses, après Services spéciaux, Algérie 1955-1957(éditions Perrin, 2002) et Pour la France, Services spéciaux 1942-1954 (éditions du Rocher, 2004), revient sur son passé de tortionnaire pendant la guerre d'indépendance de l'Algérie.

A 90 ans, l'homme ne renie rien, ne regrette rien et continue à affirmer avoir agi pour la France, sur ordre des plus hauts responsables de la hiérarchie militaire et de l'Etat. Et s'il fallait recommencer, il recommencerait. C'est ainsi qu'après avoir balayé la thèse officielle du "suicide" de Ben M'hidi dans un entretien avec Florence Beaugé, journaliste du Monde en mars 2007, il révèle en détail les circonstances de la mort du responsable de L'ALN, affirmant que l'ordre de tuer Ben M'hidi était venu de François Mitterrand, alors garde des Sceaux, "L'ordre est venu de Paris", a-t-il répondu à Jean-Charles Deniau. Et à celui-ci de poursuivre : "De Paris, vous voulez dire du ministère de la justice ?" "Oui", répond le général Aussaresses dans Je n'ai pas tout dit, il raconte plus loin: "Nous avons conduit le prisonnier sous bonne escorte-nous craignions que le FLN n'organise une évasion – dans une ferme isolée. Là, dans une pièce à l'écart de l'habitation, mes hommes ont accroché une corde à un tuyau et placé un tabouret dessous. L'un d'eux a même testé le gibet pour mesurer la résistance du tuyau. Il était solide. Vers minuit, Ben M'hidi est entré dans la pièce. Il a repoussé le parachutiste qui voulait lui mettre un bandeau sur les yeux en disant qu'il était un soldat. Le para lui a répondu que c'était un ordre. La voix ferme, Ben M'hidi a répliqué: "Je sais ce qu'est un ordre. Je suis moi-même colonel de L'ALN." Ce sont ses dernières paroles."

L'éditeur et les auteurs (Jean-Charles Deniau en collaboration avec Madeleine Sultan) prennent le soin d'avertir que "dans ce livre d'entretiens, le général Aussaresses raconte les faits tels qu'il les a vécus et tels qu'il s'en souvient. Ces propos n'engagent que lui et ne sont en aucun cas une apologie de ce qu'ils relatent".

Dans l'avant propos, les auteurs écrivent que "la vie du général Paul Aussaresses, officier exemplaire qui ne cesse de se justifier en martelant qu'il n'a jamais agi sans ordre, pose dans toute sa complexité l'éternelle question : jusqu'ou un militaire doit-il obéir aux instructions

de sa hiérarchie quand le respect des droits de l'homme et les valeurs morales qu'il implique sont bafoués?".

Paul Aussaresses raconte qu'il a été désigné le 1er mai 1947 comme commandant du 11e bataillon de Choc, basé à Montlouis dans les Pyrénées. "J'avais les coudées franches. C'est donc en me basant sur la fameuse liste de Pezou que j'ai choisi les agents qui me semblaient les meilleurs, pour former le 11e Choc." (page 35) Une note des auteurs nous apprend que le "bataillon de Choc aéroporté", le 11e Choc, a été créé le 1er septembre 1946. Paul Aussaresses en est le premier commandant en titre. Cette unité "service Action", c'est-à-dire le bras armé du SDECE, est composée de près de cinq cents hommes et de vingt-cinq officiers formés à toutes les disciplines : saut en parachute de jour, de nuit, sur terre, en mer, maniement d'explosifs, combat corps-à-corps, transmission, survie en montagne et, plus tard, nageurs de combat. Sa devise est celle des SAS : "Qui ose gagne." Pendant presque toute la guerre d'Algérie, le 11e Choc est aux avant-postes.

Nadjia Bouzeghrane.

NB: pour le journal El Watan du 20 mai 2008

الفهرس



مثل كثير من رفقائي الذين حاربوا في الجزائر، لم أقرر النسيان وإنما قررت السكوت، فلقد كان ماضيّ في المصالح الخاصة التابعة للجمهورية الفرنسية يتطلب مني ذلك.

وإنني وإن كنت على يقين من أن السرد الذي سأقوم به في صفحات هذا الكتاب سوف يصدم أولئك الذين كانوا يعلمون وفضلوا أن أصمت مثلهم، أو أولئك الذين لم يكونوا يعلمون ويريدون أن لا يعلموا أبدا، غير أني أظن أنه آن الأوان لأن تقال أشياء ما، وبما أنني -مثل ما سنرى- مرتبط بوقائع هامة من تاريخ الجزائر، أُقدّر أنه من واجبي سردها. وقبل طي صفحة التاريخ يجب أن تكون قد قُرئت، وهذا يعني بالضرورة أنها كُتبت.

إن العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقدا في ذلك أنني أحسن صُنعًا، وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن أن نندم عليه.

الجنرال أوساريس

دار المعرفة

10 شارع عبد الرحمان ميرة باب الواد الجزائر

هاتف: 12 82 96 (021)

فاكس: 97 86 96 (021)

www.elmarifa.com


9 789961 485101